AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

370.962
A131FA

فى كُتَّاب القرية

للأستاذ

محمد عبد الجواد

المدرس بمعهد التربية للبنات بالزمالك

« دبلوم » دار العلوم و « ليسانس » الحقوق المصرية من جامعة فؤاد الأول

مؤلف كتب :

تأمل مشاهد الطبيعة ، والتربية الوطنية ، ودروس التهذيب التاريخية ، والتذكرة فى فقه اللغة ، مع التكملة ، والهامش ، والبحاثة اللغوية الخ .

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لمطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

IN THE VILLAGE SCHOOL

(THE KUTTĀB)

by

MOHAMED ABDUL GAWAD

Professor, Institute of Education for Girls, Zamalek, Cairo.

ALL RIGHTS RESERVED

DE L'ÉCOLE DU VILLAGE

(LE KUTTĀB)

par

MOH. ABDUL GAWAD

Professeur, L'institut de L'éducation pour Filles, Zamalek, Le Caire

TOUS DROITS RÉSERVÉS

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك الذي

خلق خلق الانسان

من علق اقرأ وربك

الأكرم الذي علم

بالقلم علم الانسان

ما لم يعلم

المضمون

صفحة

تصدير ... ... ز

المقدمة ... ... م

على عتبة الوجود ١

مفردات اصطلاحية ٤

إلى الكُتاب ٥

كُتاب القرية ١٧

أدوات الدراسة ٣٥

مواد الدراسة وأغراضها ٤٣

طرق الدراسة ٥٦

اوقات الدراسة ٦٩

دولة الكتاب ٨١

محكمة الكتاب ٩٩

أجور التعليم ١١٠

ختام العيد ١١٨

نهاية الثقافة فى الكتاب ١٢٥

الكتاتيب التابعة للنظارة لغاية ديسمبر سنة ١٨٩٨ ... ... ١٤٦

كلمة تاريخية ختامية ١٤٧

أَلا حَبَّذا صُحبةُ المكتب !

وأَحْببْ بأيَّامِهِ أَحْبِبِ !

« شوقى »

تصـــدير

للدكتور ابراهيم سلامه

المدرس بدار العـــلوم العليا

أعرف الأستاذ « محمد عبد الجواد » منذ عشرين سنة ، أيام كنا فى دار العلوم ، وكنت فى السنة الأولى ، وكان فى السنة النهائية . ولم يكن بينى و بينه من علاقة ، أكثر من علاقة الرهبة التى يحفظها المتأخر للمتقدم ، وأكثر من علاقة الرغبة التى تتحول إلى مَثَل ، يرى فيه المتأخر فى المتقدم كل آماله وأمانيه ؛ وهل لطالب السنة الأولى آمال ، أكثر من أن يكون طالباً فى السنة النهائية ، قريباً من الواحة التى يحط بها رحله ، ويلقى بها عصا تسياره ؟ !

نعم كان الأستاذ « محمد عبد الجواد » فى دار العلوم ، من الطلبة الظاهرين ، بل البارزين والمبرزين . فقد أتاه الله بسطةً فى الجسم : فهو طويل، متين البناء ، عريض المنكبين ، واسع الصدر ؛ و بسطةً فى العلم : فقد كان الأول فى فرقته ، وحافظ على أوليته أكثر من نصف حياته المدرسية ، وتناوب هذه الأوليه مع غيره فيما بقى له منها . وكنا طلاب السنة الأولى ، نرقب الأستاذ « محمد عبد الجواد » طول السنة ، لنرى أحافظ على عدّ طلبة فصله ، وتقديم كشف الغياب والحضور عنهم لضابط المدرسة أم لا ؟ فقد كانت تلك الظاهرة فى الزعامة المدرسية ، هى كل ما نستطيع أن نحكم به مادياً ، على أوائل الفصول . وأشهد أن « محمد عبد الجواد » راقب فصله فى الحضور والغياب ، فوق ثلاث سنوات من خمس، هى مسافة ما بين الطالب والمعلم.

نجح الأستاذ « محمد عبد الجواد » نجاحاً باهرا ، وتخرج فى دار العلوم فى أوائل صيف سنة ١٩١٤ ، واختير للبعثة فى انجلترا ، وكان ثالث ثلاثة : هو والأستاذ أحمد صفوت المدرس بدار العلوم والأستاذ محمود حمزة المفتش بوزارة المعارف . قابلتهم فى الاسكندرية ، وهم يمرنون على اللغة الإنجليزية مدة الصيف ، استعداداً للسفر إلى بلاد الإنجليز فى نهايته ؛ ولـكن فاجأتهم جميعا الحرب الأوربية الـكبرى

فى أغسطس من تلك السنة ، وعاقتهم جميعاً عن السفر ، فأرغموا على الأقامة فى مصر ، « وفروا من قضاء الله إلى قضاء الله » ، ولكنهم أكبوا على العلم فى مصر بنفس الروح التى دفعتهم إلى الاغتراب فى طلب العلم فى انجلترا . وكما لا يتقيد النبوغ بزمان ، لا يتقيد بمكان ، فكل البيئات ميدان للعمل مع كبار الهمة وصادقى العزم .

عز على الأستاذ «محمد عبد الجواد» أن يقطع بعثته ، أو أن يبعد عنها بما لم يكن فى حسابه ولا فى تقديره ، وما الغرض من البعثة إلا تعلم اللغة والانتفاع والنفع بها . وهنا يحاول أن يغير من طبيعته ، وأن يلح على شخصيته العربية ، فيخلق منها شخصية أخرى ، أوربية أو ملونة باللون الأوربى ، لتجتمع له الثقافتان العربية والأوربية .

ولقد دهش إخوانه يوم رأوه يتقدم للشهادة الابتدائية مع تلاميذ المدارس ، كما دهش المراقبون ، إذ يرون معلماً بين صفوف التلاميذ ، وكذلك المصححون ، إذ يقرءون ورقة من اللغة العربية لتلميذ فى المدرسة الابتدائية ، بين أوراق لا تزيد أسنان أصحابها على الثانية عشرة والرابعة عشرة ، يسرد عليهم قواعد النحو كما يسردون ، ويطبقها على أصولها كما يطبقون ، ويستشهد لاجابته بما جاء به ابن معطى وابن مالك وابن يعيش ! وهنا أسأل نفسى : كيف كانت دهشة الممتحنين فى اللجنة الشفوية ، حينما مثل أمامهم الشيخ محمد عبد الجواد ، فأفسحوا له فى مجلسهم ، وصفقوا على خادم القهوة ، يرحبون به ويحيونه ، ويأبى إلا أن يجلس أمامهم يقول ، فى رِبْكة الممتحن : سلونى سلونى ، فلهذا مثلت أمامكم ! !

خرج « محمد عبد الجواد » من هذه المحنة الابتدائية ، ظافراً منصوراً ، واجتاز هذه العقبة إلى غيرها من شهادة « الكفاءة » و « البكالوريا » ثم عكف على الدراسة الجامعية ، فتوّج أعماله « بليسانس الحقوق » . وهكذا عبّد لنفسه طريق النجاح ، وتغلب على كثير من العقبات ، التى كان يعدها غيره طبيعية ، ويعد مغالبتها ضرباً من محاولة المحال .

هذا هو الأستاذ « محمد عبد الجواد » فى دراسته العالية على النمط العربى ، وفى دراسته الابتدائية العالية على النمط الأوربى . أما الطفل محمد عبد الجواد أو « الولد » « محمد عبد الجواد » أو « أبو حلأة » كما كان يسمى فى الكتاب ، فذلك ما نترك له الكلام فيه ؛ وهو إذا حدثك عن نفسه فى كُتّاب قريته ، رجع بها إلى طفولته ، ثم رجع بك ، أنت أيها القارئ إلى طفولتك أيضاً ، ثم يرجع بكل قارئ ، إلى أحلام عذبة لذيذة ، لا تملك نفسك، إذ تقرؤها ، من الضحك ، أو من الابتسامة . وكأن ذكرياتك تتجمع جميعاً فى رأسك ، ثم تنحدر إلى وجهك فيشرق ، ثم إلى شفتيك فتنفرجان ، وكل ذلك يجرى على غير شعور منك ، أو يثير فيك كامن الشعور ، فما يحدثك بجديد ، وإنما يحدثك بقديم ، تردى فى كهوف الشعور ، ونسجت عليه الأحداث ، ومختلف المشاعر ، بنسيج غير رقيق ، بل أطبقت عليه الحوادث بطبقات غير نافذة ، ولكن « محمد عبد الجواد » ينفذ فى مغاور هذه الذكريات، بسلطان عجيب !

يصطحبك معه إلى « سيدنا » الذى كنت تفرق من شبحه ، ويشهدك معه هذه العقوبات المادية ، التى وقعت عليك وعليه وعلينا جميعاً ، فتذكرها ولكن مع الابتسامة أيضاً ، وبكثير من الإجلال ؛ فالتربية الحقة هى ما نظر فيها إلى الغايات وإن قست وسائلها وأساليبها .

من منا لا يذكر — وهو يقرأ « محمد عبد الجواد » فى الكُتّاب أو يقرأ شيئاً عن كُتّاب قريته — حياتَه الأولى التى نبت فيها ، أيام أن كان يتقلب بين يدى « الفقيه » وبينهما كل قوة القدر ، ويتلوى بين « الفلكة والجريدة » ، وهو إن تبرم بهما لأهله أجابوه بأنهما من أعواد الجنة ! ؟ ومن منا لا يذكر أيام أن كان فى الكتاب طفلاً مدللاً لأنه ابن فلان ، وطفلاً ذليلاً لأنه خادم الفقيه ، ويافعاً رئيساً يعتز بالصحبة والأصدقاء ، ومنبوذاً منزوياً ، لأنه تخاصم إلى فلان أو فلان من أترابه ؛ ثم لا تلبث الخصومة الفردية ، أن تتحول إلى خصومة اجتماعية ، فيهجره الأصدقاء والصحاب ، وهو إن لعب لعب وحده ، وإن راح أو غدا كان وحده ، فتظلم الدنيا فى وجهه ،

ثم يستقبلها فى الصباح بوجه مشرق ، لأن المختصمين لمحوا فى يديه لعبة مسلية ، أو لقمة شهية ، فيجتمعون عليه ، وكأن شيئاً من ذلك ما كان ! ؟ ما أعذب الطفولة فى مرحها وترحها ، فى خصومتها ورضاها ، فى فكها وأسرها ! ؟ فهى الحياة فى جميع ألوانها ، وهذه الألوان فى جميع أطوارها زاهية براقة !

بقى أن نترك « الأستاذ محمد عبد الجواد » يصف لنا ما تعيه الذاكرة ثم يحكم عليه ، أو أن نترك « الولد محمد » يسرد علينا ذكريات طفولتـه ، سرداً بريئاً خارجاً عن أساليب القول ، وإحكام المنطق ، كما يفعل الأطفال . فهو فى الحالة الأولى يقدم لنا لوناً من الدراسات الجديدة ، وهو فى الحالة الثانية عذب الحديث لطيف المدخل ، برىء العبارة ، كما يفعل الأطفال . ولنحكم على هذا النوع من الدراسة التحليلية ، أهى دراسة تاريخية ، يقرر بين أسبابها ومسبباتها ، ويعمد فيها إلى قوة الحكم والتعليل ؟ أم هى دراسة اجتماعية ، يرى الواقع فيها فيقرره على أنه الواقع ، ولأنه الواقع ، ثم يتخذ مما رأى وسمع وشاهد ، فكرةً عن الجيل الذى عاش فيه الكتّاب ، لينتقل بعد ذلك ، إلى أن نظم التعليم تتبدل بتبدل الجماعة ؟ أم هى دراسة تربيبية ، يريد أن يعرض فيها للتعليم فى القرن التاسع عشر ، ثم يعمد بعد ذلك إلى الطريقة التقارنية التحليلية ، ليعرفنا إلى أى حد ، وإلى أية غاية ، وصلنا بالتعليم ، أو وصل بنا التعليم ؟ أم هى لا هذا ولا ذاك من تلك الدراسات المقررة ، وإنما هى لون جديد وخاص ، تعرض فيه النظم ، ويعرض فيه صاحبها للواقع ، احتراماً له ، ويذكر فيه الميول التى نأثر بها ، والرغبات التى دفعته ، والذكريات الجميلة التى يطرب لها ؟

الحق أنها مزيج من كل أولئك : فهى دراسة تاريخية ، تربيبية ، اجتماعية ، فى وقت واحد . فالكُتّاب أساس نظام التعليم فى مصر ؛ وكلَ خطوة خطتها وزارة المعارف فى سبيل الإصلاح التعليمى ، كانت إما معدلة فيه لبناء الكتاب ، أو لأنظمة الكتاب ، حتى يتفق مع روح التطور . وفى زمن إسماعيل العظيم ، أصاب الكتّابَ لفتةٌ من لفتاته ، واجتمع «القومسيون» الذى أصدر اللائحة المعروفة بلائحة سنة ١٨٧٤

والتى كان على باشا مبارك عضواً فيه . لم يجد القائمون على شئون التعليم وسيلة لنشره إلا عن طريق الكتّاب ، الذى كان موزعاً فى كل محلة وقرية و بلد ، والناحية الخالية من الكتاب، كان فيها أمام مسجد الناحية ، يقوم بوظيفة التعليم إلى جانب وظيفته الدينية ، وانتهى بحث « قومسيون » على مبارك باشا ، بتقسيم الكتاب إلى ثلاثة أصناف ، درجة أولى ودرجة ثانية ودرجة ثالثة . وكتاب الدرجة الأولى هو المدرسة الابتدائية الآن .

الكُتاب هو البيئة المدرسية الوحيدة ، التى تهدينا دراستها إلى معرفة أنظمة التعليم الإسلامية ؛ فالكتابة فى الألواح ، ومحوها ، والتدرج فى التعليم فيها ، من ا ب المهملة إلى ا ب المعجمة ، ثم إلى جمع الحروف الأبجدية فى كلمات « أبجد هوز الخ » ، ثم الانتقال من هذه الحروف المهملة والمعجمة ، إلى كتابة المقاطع والكلمات ، هى الطريقة الوحيدة ، التى نلمح فيها نظم التعليم الإسلامى ، وعلاقتها بالطرق الحديثة ، التى تقررها التربية الآن .

ولقد عنى علماء التربية فى أوربا بالكُتّاب ، الذى كانوا يسمونه L'école d'écriture «مدرسة الكتابة» ، عناية كبيرة . و إن الإصلاح الدينى ، الذى قام به لوثر Luther فى القرن السادس عشر ، كان من مميزاته نشر الثقافة القومية فى الكتّاب ، أو فى «المدرسة الشعبية» ، وكان رجال الدين قبله يَفْرَقونَ من تعليم العامة ، ويهملونهم قصداً ، إما لأنهم كانوا يخشون سلطة الشعب المتعلم ، إذا استغلها ظَلَمَة الحكام ، و إما لأنهم كانوا يوجهون عنايتهم إلى تعليم الطبقة الارستقراطية فقط ، لأنها الطبقة التى يعدونها لتولى الحكم ، ويهمهم السيطرة عليها من أول الأمر ، حتى يأمنوا جانبهم ، وحتى يستغلوهم ، فى مآربهم وغاياتهم . فعصر النهضة فى أوربا هو عصر الكُتّاب ، عصر « المدرسة الشعبية » وتعميمها ، وتبدل نظم التعليم فيها .

ويهمنا الآن ، ونحن نؤرخ لثقافتنا فى تطوراتها ، وأدوارها ، أن نفسح فيما نكتب ، من تاريخ التعليم ، فصولاً للكُتّاب ، ولأنظمة الكُتّاب ، إن كان يهمنا الرجوع فى تاريخ تعليمنا إلى الناحية القومية .

وربما قيل إن هذه المرحلة التاريخية فى تعليمنا مرحلة يجب أن نسترها ، وأن نسدل عليها الستور ، لأنها تدل على شىء من الفوضى التعليمية ، أيام أن كان التعليم مسنداً إلى غير أهله ، وأيام أن كان أطفالنا يعانون أقسى الآلام ، أمام أجهل المعلمين ! ولكن هذه الناحية وحدها ، تدل على مقدار ما أدركنا من تقدم ، فى المادة وفى الطريقة . وليس التقدم أن تنظر الى ما يكون ، بل أن ترجع الى ما كان وبينهما كل خطوات التطور والانقلاب .

إن فرنسا على عظمتها فى أساليب التعليم ونظمه ، حينما أرادت أن تؤرخ لتطور التعليم الابتدائى فيها ، لم تجد إلا « تاريخ المدرسة الأولية » الذى كتبه أحد الفرنسيين وقرظه فى مقدمة كبيرة ، رجلها السياسى العظيم هريو "Hiriot" ، ولم تجد غضاضة فى أن تعرض بين صور المدرسة الأولية ، فى القرن التاسع عشر ، مناظر الأولاد وهم جالسون على المتهمىء من الحصر والبالى من الأبسطة .

فكتاب الأستاذ « محمد عبد الجواد » ، سد فراغاً كبيراً ، فى تاريخنا القومى للتعليم . وإذا سمح لى أن أشير عليه بشىء ، فأنى أشير عليه بترجمته إلى لغة أوربية . فمثل هذه الدراسة الوصفية الاجتماعية ، تصادف نجاحاً كبيراً عند من يهمهم أمر تطور الثقافة فى جهاتها المختلفة . وليس فى هذه الاشارة مجرد رغبة ، بل فيها أداء واجب وطنى جميل ؛ فأن من يكتب عن تاريخ التربية فى مصر ، لا يرى أمامه إلا أنظمة مستعارة من أوربا . وقد دعا هذا ، المؤرخ البيداجوجى العظيم ، بويسون Buisson فى كتابه « قاموس التربية الحديث » إلى أن يقول : « إن مصر ليس لها طريقة فى تربيتها ، بل كل ما فيها أنظمة أوربية أصلا ، أو محورة بعض التحوير ! » وغفل عن الدراسة فى الأزهر ، والدراسة فى الكُتّاب ، وفيهما كل الصفات المميزة ، للطريقة المصرية ، والاسلامية بوجه عام !

وإذا أشرت على الأستاذ « عبد الجواد » بنقل الكتاب إلى لغة أوربية ، فأنى أشير على وزارة المعارف أيضاً ، بنقل وتكبير الصور الواردة فيه ، وإيداعها فى متحفها العلمى ، فتلك خدمة قومية ، جليلة ، لا نعتقد أن وزارة المعارف تتردد فيها .

ابراهيم سلامة

فى كتاب القرية

صفحة من تاريخ التعليم بمصر ، فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى ، تصوّر ، أى تصوير ، حالة كتاتيب القرى فى ذلك العهد .

أردت ، أول ما أردت ، أن تكون هذه الصورة لكُتاب القرية مجردة ، إلا أن ألواناً من الشخصيات والاجتماعيات طغت عليها . وكان بودى ألا تشوبها هذه الألوان ، إبقاء على تاريخ التعليم ، لولا أن وجدت من حياتى الشخصية ، دراسة ، مقصودة أو غير مقصودة ، لكثير من قواعد علم النفس والتربية ؛ وفى الاجتماعيات صبغة تاريخية ، لعلها أجدر بالتصوير من تاريخ التعليم !

وقد أراد الله نشر هذه الصحيفة الآن ، على الرغم من تفكيرى فى تصوير هذا المعهد الأثرى منذ أكثر من عشر سنوات ، حين أبى علىّ تضعضع صحتى القيام بذلك . وكلت حينئذ إلى صديقنا الأديب العصامى ، السيد محمد البندارى الزرقانى ، المدرس الآن بكلية الأقباط بالخرطوم ، أن يكتبها عنى ، بعد أن وضعت له أسسها ، ورسمت عناصرها . ولكن « ما صوَّر فكرَك مثلُ قلمك » ! كتبها مختصرة ، وجعل محورها غير ما أبغى ؛ إذ عمد إلى الوصف المقتضب ، والإطراء الكثير . وقد أشار إلى ذلك فى آخر المقدمة التى كتبها لرسالته ، قال :

« أنست من حضرته رغبة شديدة ، فى إبراز مؤلف بهذا المعنى :

١ — فى التعليم الأولى بمصر فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر .

٢ — حالة المعاهد الدينية فى العقد الأول من القرن العشرين الميلادى .

وهو إذا أراد حقق ، وإذا عزم صدق . ورأيت أن إجهاده نفسه ، وهو يَدْرُس بكلية الحقوق ، مع ما يباشر من إلقاء المحاضرات لناظرات ومعلمات

المدارس الأولية ، والتعليم بالمدرسة السنية ، والتأليف فى أوقات فراغه — كل هذا فى وقت واحد ، ترك فى صحته ضعفاً ، وفى أعصابه اضطراباً ؛ يظهر ذلك عند كل تفكير طويل ، وبحث عميق . وهو ، مع هذا ، قد تعتريه الفكرة ليلا ، فيترك فراشه ، ويغالب مرضه ، ليقيدها .

استمليته أسس البحث ووسائله ، ثم روح الوضع ونظامه ، ونحن بسفح أهرام الجيزة فى ١٥ من ديسمبر سنة ١٩٢٧ . وترددت عليه ، لاستقاء ما لم أعرف ، واستيفاء ما لم أستكمل . ورأيت أن أجعل حضرته مثلا ، يُبنى عليه توضيحُ حال هذه العهود وأطوارها ، ونفسية الناشئة فيها ، وأن أدل على فضله ونبوغه ، وإن لم يرض بهذه الدلالة ، ما دام فى هذا أداء حق العلم ، ووفاء دين النابهين العاملين المخلصين ، الذين فى ظهورهم فى أدوار الحياة ، كل خير وبركة لوطنهم وأمتهم . والله يتولانا بهدايته وتوفيقه ، فإنه نعم المولى ونعم النصير . » ا هـ

لهذا عولت ، بعد أحد عشر عاماً ، على كتابة الرسالة بنفسى من جديد ، حامداً الله على توفيقه ، شاكراً لصديق حسن نيته فيما كتب .

وقد حال تزاحم المعانى لدىَّ دون العناية بزبرج الألفاظ ، فلم يطاوعنى قلمى فى رفعها إلى مصافّ العبارات الأدبية ، وقد عوّدنى الجموح منى والشرود عنى ، فجاءت سهلة بسيطة ، تؤدى ما أبغى من الوصف التاريخى الناصع ، وتجلى المشاهدات الواقعة كما أردت .

أمّا ما أثبتُّه من الصور ، فقد كان الحرص شديداً أن تكون أمينة على التاريخ ، توضح بعض ما تعرضت له من الحقائق ، وإن كان قليل منها وليد الخيال أو الذاكرة ، رغم ارتكازه على شىء من الحقيقة . على أن كل الصور الممثلة لدار الفقى ، لا فرق بينها وبين الأصل إلا بقدر ما بين الصورة الشمسية والصورة التخطيطية ، إذ تداركنا منها ، منذ عشر سنوات ، عدة صور شمسية ، كانت أساساً لتلك الصور المخططة ؛ ومن الجدّ الفائز ، أو لحسن الحظ ، لم تكن تلك الدار تغيرت عما

كانت عليه قبل أربعين سنة ، وإن كانت يد الزمان قد امتدت إليها الآن ، وعبثت بها ريح الحدثان ، فأتت على عاليها مع سافلها ، وسبحان من لا يتغير !

هذا وربما كان فى هذه الرسالة نقص لا بد من الإشارة إليه ، وعيب لا غنى عن الاعتراف به ، ولا سبيل الآن إلى تلافيه . سيرى بعض القراء أن الموضوع ينقصه كذا وكذا من الإحصاء ، ويعوزه كيت وكيت من الاستيعاب ، وهو فى حاجة إلى صنف من الموازنة ، وضرب من التسلسل التاريخى ! قد أحس أنا بهذا وألمسه قبل القارئ ؛ ولكن لا تثريب علينا ، ما دام غرضنا تسجيل الواقع والتاريخ كما كان ، ووصفه كما هو ، Ipso Facto ، بصرف النظر عن نقده ، وبيان ما كان يلزم من إصلاح ، أو ما اعتراه من تطور . فإنى قصدت إلى حصر الموضوع فى أضيق ما يكون من مدًى ، حيث الدائرة محدودة ، والغرض واضح ، وعلى الله قصد السبيل ؟

محمد عبد الجواد

المحرم سنة ١٣٥٨ هـ
مارس سنة ١٩٣٩ م

على عتبة الوجود

— أتذكرين ليلة ١٢ من ربيع الأول ؟

— نعم ، وليلة ١٢ من ذى الحجة .

محاورة كانت بين المرء وزوجه ، يذكران فيها ذلك الوقت المحبوك الطرفين ، المحدود النهايتين ؛ وابنهما بجانبهما ، ينصت إلى المحادثة ، ويعجب من ذكر هذا التاريخ بالدقة ، مفكرًا فيما عسى أن يكون هذا الأمر الخطير ، الذى كان فى الليلتين المذكورتين . وكلما مر بخاطره أمر هذا الحديث ، يعود إلى نفسه ، ويستنجد مفكرته فى حل هذا اللغز العميق ؛ ثم يستعرض ما لهذين الزوجين من وقائعَ فى حياتهما هامةٍ ، كى يهتدى ، على ضوئها ، إلى استجلاء هذا السر الغامض . وكل ما علمه ، أن الشيخ تزوَّج مرة ولم يُعْقِبْ صبياً ، ففكر فى أخرى ؛ ووجد فى زوجه هذه من عراقة الحسب ، ما حَبَّبَها إلى نفسه ، فتزوَّجها رجاء أن تحقق أمله ، ويُنْجِبَ منها ذكرًا .

(شكل ١) ينصت لحديث والديه

لعل هذا الحديث كان خاصاً بالحمل فى أول طفل رُزِقاه ، ولعله خاص بالحمل فى ابنهما هذا ، الذى تعود أن يستمع إلى أبويه ، دون أن تحدو به الجُرْأة إلى أن يوجه لوالده من الأسئلة ، ما يميط اللثام عما يسمع من ألغاز ، أو يكشف له الغطاء عن هذا الأمر المستور ، الذى حدث ليلاً ، واستمر تسعة أشهر قمرية كاملة .

شبَّ هذا الغلامُ ، وأصبح جريئاً على مخاطبة والده ، وارتفعت الكُلْفَة بينه وبين والديه ؛ وطالما جلس لمسامرتهما ، وحاول الرجوع بهما إلى ذكرياتهما الشائقة ، الخالدة عندهما ، يريد استدراجهما إلى الإدلاء بشىء عما كان يحيط بيقظته فى الحياة . كان يقصد إلى رفع السِّتر عن قصة الحمل فيه ، وعن ولادته ، وما كان يسمعه من جدّته ، حول استقباله فى الحياة ، أولَ مولود ذكر ، جاء على « شوق وعطش » .

وفى الحق ، إنه لم يرد أن يعتزَّ بنفسه ، أو يُدِلَّ على والديه بوجوده ؛ إذ لم يفلت من قسوة تجارب التربية الأولى ، تربيةِ أولِ طفل للرجل ، حينَ يتجلى تحكم الوالد ، فى تطبيق سلطته الأبوية الغاشمة . نعم ، كان يعلم حق العلم ، أن عِزَّته و « غلاوته » لا تجديه نفعاً ، ولا تؤثر فيما رسمه له أبوه ، من تأديب كان يظنه الطفل قاسياً ، وخطةٍ فى الحياة والتعليم ، كان يراها الوالد مُحكمة . بل كل ما أهمه ، أن يعود بوالديه « رحمهما الله » إلى الحديث عن ليلتى ١٢ من ربيع الأول و ١٢ من ذى الحجة . كان يعلم أن ذلك مما يسرهما ، وكان هذا الفتى حريصاً على إدخال السرور على والديه ، ولا يُفَضِّل فى الحديث معهما ، إلا هذا النوع منه .

دعت ضروراتُ الحياة هذا الشابَّ ، لاستخراج شهادة ميلاده ، فوجد أنه « رسميًّا » من مواليد ٥ من سبتمبر سنة ١٨٨٧ م . ولم يَفُتْه ، بعد أن كبِرَ وتعلم عدّ السنين والحساب ، أن يعرف أنَّ السنة الهجرية ، التى توافق سنة ميلاده بالفرنجية هى سنة ١٣٠٤ هـ .

وهو ، إذِ اطمأنَّتْ نفسُه إلى معرفة ذلك التاريخ ، وعَلِمَ أنه خاص بالحمل فيه وولادته ، يعود إلى نفسه فيسائلها : ماذا كان يريد أبواه من التصريح بهذا أمامه ؟ أكانا يقصدان إلى التلذذ بالحصول على الشىء الذى تمنياه ، أو التحدث بنعمة الله عليهما شكرًا له واعترافاً بفضله ؟ أم كان الوالد يريد أن يلقى فى رُوعِ ابنِه ، أن هذه الأيام ، التى يرتبط بها وجوده ، هى من الأيام السعيدة التى يعتبرها المسلمون مواسم دينية ؛ فليلة الحمل به كانت ليلة مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وولادته كانت فى أيام عيد الأضحى ، موسم الحج المقدس ؟ !

يرجح الفتى كثيرا ، أن هذا المقصد الثانى كان هو الغرض الذى يرمى إليه أبوه ؛ إذ كان يعنيه أن يعرف ابنُه قيمتَه فى الحياة فيَقْدُرَها قَدْرَها ، وأن يعلم أنه ظهر إلى الوجود فى زمن ميمون الطالع ، فلا يعمل إلا خيرًا . كان الوالد — وهو مسلم قُح — يعتقد بعض الاعتقاد ، أو يزعم كل الزعم ، أن ابنه هذا سيكون لذلك سعيداً ، فأسماه « محمداً » ! وطالما امتنَّ على ولده بأنه ربَّاهم خير تربية ، واختار لهم خير الأسماء .

وقد رأى هذا الشيخ أن يختطَّ لتعليم أبنائه خُطَّة تعوضُ ما فاته فى صباه ، لأنه انصرف عن طلب العلم ، فلم يصر عالمًا بالأزهر الشريف

كما أراد أبوه ، ووجد الفرصة حينذاك سانحة للسعى وراء تحقيق أُمنيّته ، وأن يكون ولده من العلماء ؛ ولهذا بعث بابنه هذا إلى الكتاب تمهيداً لإرساله إلى المعاهد الدينية فيما بعد .

مفردات اصطلاحية

الكتاب: موضع تعليم الكتاب (الصبيان) والجمع الكتاتيب . لسان العرب .

الفقى : مرخم الفقيه وهو (سيدنا) صاحب الكتاب أو رئيسه .

العريف : وكيل الفقيه فى الكتاب . الأولاد : تلاميذ الكتاب .

الدويان : جمع دواة ، وهى المحبرة التى يكتب منها الأولاد .

الليقة : خرقة قديمة توضع فى مداد الدواة .

المقلمة : قصبة مجوفة توضع فيها الأقلام .

اللوح : صفيحة أو خشبة يكتب فيها الأولاد .

الصحة : تصحيح اللوح بعد كتابته . التعليق : تعليقه أوتركه بعد الحفظ .

الماضى : ما سبق حفظه . والحصة : جزء منه مقرر .

التثبيت : تكرار المحفوظ ليثبت فى الذهن .

الصرافة : مبلغ أو شىء يعطى للفقيه عند ختام سورة أو إتمام جزء من القرآن أو عند انصراف من الكتاب لعيد أو نحوه .

العادة : عدد من الرغفان يحمله الولد كل يوم للفقيه .

العلقة : عدد من العصى ، أو شوط من الضرب .

إلى الكُتَّاب

معذرةً ، ومغفرةً ، إنْ كنت أضَعْت وقتك الثمين ، فى قصة قد لا تَهُمك ، وأمور تَعْنينى وقد لا تَعْنيك ، وقد لا تحس فيها شيئاً من الدراسة أو البحث واضحاً ! وإياك أن تصب علىّ جامَ غضبك ، وتسلُقَنى بلسان حاد ، أو توجه إلىّ شيئاً من اللوم والتقريع ، فتصيح : « ما لنا ولولادتك ؟ ! وما علينا إذا لم نعرف ذلك الزمن الميمون الطالع ، الذى أعدّتك القدرةُ فيه للوجود ؟ ! ولماذا تفخر بساعة حملت بك أمك ؟ ! وما شأننا بيوم ولدتك ؟ ! ألم تبدأ حياتك بما لا يفخر به مثلك ؟ ! ألم يكن مَهْدُك بعد أن تلقفتك يدا القابلة ، ما كان يمتهده المواليـد فى ذلك الحين ، وذاك المكان ، من غِرْبال أو طَسْت أو ما شاكلهما ! ؟ لقد كان ذلك ، وكان يزعجُك صياح الدِّيكة ، وتَروعُك النَّبْأة ؛ وقد نشأتَ فى قرية نائية من قُرَى الريفِ ، حيث وسائلُ الرعاية بالأطفال محدودةٌ مألوفة ، وأمورهم إلى الصُّدَف موكولة ، وهم تحت رحمة الأقدار ، صحةً ومرضاً ، قوةً وضعفاً ، حياةً وموتاً ! ! »

حقاً ، أنا معك فى هذا ؛ وإنى أعترف لك بأن أول صحيفة من كِتاب شقائى ، الذى سَطَّرته الأيام ، وسيسجله التاريخ ، ليس فيها عنوان الفخر والعظمة ! بل قد يزهد فى قراءتها كثير من النشء ، ويُعرض عنها جِلّةُ الشباب ! ولكنى تعرضت لها ، وتصدَّيْت لتسجيلها ، ممثلا قول سيدنا موسى (عليه السلام) « ولى فيها مآربُ أخرى » .

ولعلك تترقب — بعد أن علمت بالدقة تاريخ الحمل والوضع — أن أصف لك كيف كان الاحتفال باستقبالى، مستقبلاً الحياة، والاحتفاء بولادتى، وأنا أول مولود ذكر، رُزقه والد وحيد، تحفه الأمانى بأن سيكون عميد الأسرة، يتلقى عن والده تُراثها ومآثرها، ويحمل ألقابها، ويغنم أسلابها، ويُخلّد ذكرها، ويُعوّض الوالد فى تربيته، ما كان قد فرّط هو فيه لنفسه! أعفنى من هذا، وتصوره كيف شئت، وهلم إلىّ أذكرْ لك متى ذهبتُ إلى الكتاب.

فى ذلك الوقت، فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، لم يكن التعليم فى مصر منتشراً، وما كان للتربية أهمية، ولا للدراسة شأن. بل كل ما كان من معاهد التعليم، هو الأزهر الشريف والجامع الأحمدى للتعليم الدينى أو الروحى، وبضع مدارس للتعليم الزمنى، عالية وتجهيزية، لا تتجاوز أصابع اليدين، وعدة مدارس ابتدائية ومكاتب لا تعدو مائة، ثم آلاف من الكتاتيب مبثوثة فى القرى[1]؛ والكتّابُ كان خير ملجأ يُرسَل إليه الطفل وقتئذ. ولقد كنا نسمع أن ابن فلان ساقَتْهُ الحكومة إلى المدرسة، كما يُساق المجرمُ إلى السجن، أو كما كان يُجنَّد الجند إجباراً، على غير رضا من أهليهم وقرابتهم.

لهذا تجدنى أتحسس الوقت الذى ذهبت فيه، أو أُرْسِلْتُ إلى الكتاب، وأتلمس ذلك التاريخ بين ثنايا أربَع من ذِكْرَيات الطفولة البريئة، تلك

---

(١) فى سنة ١٨٩٨ كانت المدارس التى بمصر هى: مدرستا المعلمين الخديوية، والتوفيقية، ومدارس الطب والحقوق والمهندسخانه ودار العلوم من المدارس العالية، والمدرسة الخديوية والتوفيقية من المدارس الثانوية، وأقل من ٣٠ مدرسة ابتدائية، منها مدرسة واحدة للبنات، ثم ٥٥ كتّابا تديرها نظارة المعارف، و٩٦٤٧ كتابا أهليا من الكتاتيب الحرة.

الذكريات الحلوة اللذيذة، التى احتفظَتْ بكثير منها صفحاتُ المخ ناصعة واضحة، ماثلة أمام العين؛ أذكرها، وأذكر غيرها الآن، كما أصف شروق الشمس وغروبها، وكما أذكر الشيء فى حينه.

ذِكْرَياتٌ إن بدا عليها شيء من السخف أو التَّفَهِ لأول نظرة، فقد يبنى عليها كثير من أصول التربية وقواعدها. ولِمَ لا؟! وهى تدل على أن الطفولة صورة مصغرة للرجولة، وأنها أول مرحلة فى تكوين الإنسان، وإرهاص لما قد يكون عليه من خُلُق وعقل وإدراك.

قد مضى على هذه الذكريات الأربع أكثر من أربعين سنة؛ وهى أحداث مرت بطفل سِنُّه بين الثالثة والخامسة من عمره، فلا عجب إذا كانت فى اختيارها لا تربو على هذه السّن. ولا تتصور أن طفلا قرويا نشأ فى أواخر القرن التاسع عشر، يكون فى الإدراك والتعقل كأطفال اليوم؛ إذ البون شاسع بين النشأتين، وبين مدركات الأطفال الآن ومشاهداتهم قبل نصف قرن.

ليس فى استطاعة هذا الطفل، الذى سجلت ذاكرته تلك الأحداث فى أيام الطفولة الأولى، أن يرتّبها فى الزمن والواقع؛ فإن تلك الذاكرة الناشئة، إذا كان لديها المقدرةُ على الإلمام بتفصيلات تلك المشاهدات، فإنها لا تقوى على وعيها مسلسلة مرتبة؛ وإن عَمِل الفكرُ الآن فى ترتيبها، فسيتناولها كمسألة علمية، يعمل فيها الذوق والاستنباط.

(١) كانت الأمّ فى القرى ربّةَ الدار، تُعنَى بولدها، وتحوطه بسياج من قانون الصحة الربنى، الذى تلقنته عن أمها ورفيقاتها وجاراتها وحماتها.

وكانت تدير منزلها، وتتولى كل شئونه، من عجن وخبز، وطبخ وغسل، وإعداد طعام، وغير ذلك.

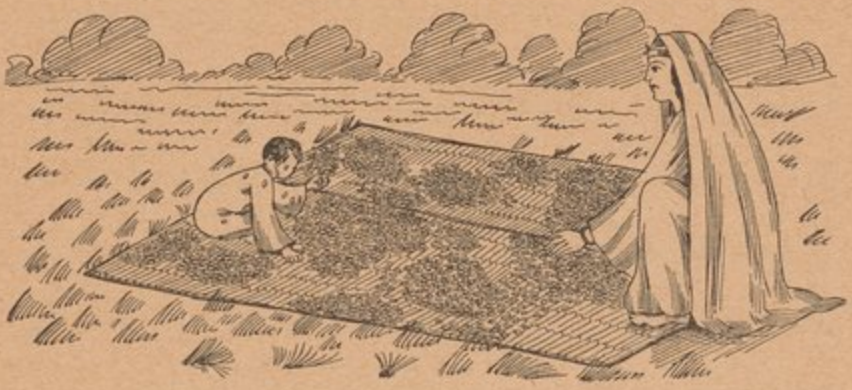

(شكل٢) الطفل يعبث بالقمح المنشور على الحصير أمام أمه

هذه أمٌّ حملت طفلها إلى الحقول، مع شيء من القمح تغسله، وتنقيه من الحصا والطين الذى به، بعد تجفيفه؛ فهى تنشره على حصير برأس الغيط، بالقرب من الترعة التى غسلته فيها، كما تفعل الريفيّات. وذلك طفلها بالقرب منها، يعبث أحياناً بالقمح، أو يرقد فيتمرغ عليه، والأم مشغولة بتمييز القمح من الشوفان والبَخْر؛ فيقطع عليها عملها هذا، حركةٌ من طفلها، تناثر فيها حبُّ القمح على رأس ابنها، ثم علمها بدخول حبَّةٍ منه فى أذنه. ارتاعت الأم لذلك، فألقت بالغربال والقمح، وتركته للعصافير والحمائم، وحملت ابنها على كتفها نحو البيت، صارخة باكية: ولدى! ابنى! ظنا منها أن أى جسم غريب يدخل الأذن قد يُسَبِّب الموت!

لك أن تتصور حال أم تزعم دُنُوَّ أجلِ ابنها البِكْرِ الوحيد، واضطرابَ قلبها الحنّان تحته وهو على كتفها، وقد تدلت رجلاه

الطويلتان على رجليها ، وهى تهرول مسرعة إلى البيت ! يذكر الطفل أن هذا كان عصرَ يوم حينَ أخذت الشمس فى الاصفرار ، ويظن أنه كان فى الثالثة من حياته ، لِما كان يسمع من والدته عن بسطة جسمه وهو على كتفها .

استغاثت الوالدة بجَدَّته ، فأرسلت حالا فى طلب الإسعاف لهذا الحادث المروّع !

(شكل ٣)
إلى المنزل ابنى ! : ولدى ! !

(شكل ٤) تخرج حبة القمح من الأذن

ومَنْ ، يا تُرى ، ذلك الذى يُسْعِف فى القرية ؟ ! تلك هى القابلة «ستى مْباركة» ، حضرتْ فى طرفة عين ، لاستعدادها دائماً للطوارئ ، وأخذت تهوّن الحادث ، بعباراتها الملطفة ، وحديثها العذب . ثم أمسكت برأسه بين يديها ، ووضعت فمها على أذنه ، وبدأت «تشفط»

حبة القمح ، وهو بين ثلاثهن ، رحمهن الله جميعاً ، حتى خرجت الحبة ، وزال الهمّ ، وتنفست الوالدةُ الصُّعَداء .

كان هذا أولَ درس واضح ، نُقِش على صفحات قلبي ، فهمت منه مقدار أعباء الأمومة ، وأولَ شعاع أدركه حسّي ، لتصوير شفقة الوالدين « رحمهما الله » ، وحملني على موالاة البرّ بهما ، برّ المدين الوفيّ ، لدائنه المتفضل المحسن ؛ وإن كان لذَعْ الحياة أو شقاؤها ، قد يلجئنا أحياناً إلى الإشفاق على شيخ المعرّة ، في الشطر الأول من بيته المشهور : هذا جناه أبي عليّ ...

(٢) ولقد أكّد لي تلك الشفقة ، وزاد تمسّكي بأهداب محبة أمي ، وتشبثي بأحضانها منذ الصغر ، حَدَثٌ آخر ، يرد بخاطري كلما ذكرتُ الحدث السابق : خَلَت الدارُ أصيلَ يوم إلا مني ، إذ تركتني أمي وانصرفت إلى عمل خارج المنزل . لم يكن هناك إلا عجل بقر ، حديث الولادة

(شكل ٥) العجل ينطحه وهو هادئ

لم يسقط سُرُّه بعدُ ، أو كاد شغلت نفسي بمداعبته ، فكان ينطحني برأسه الظريف الصغير ، ثم أخذت أحاوره وأداوره ، كأنما كنا طفلين يتغالبان ! ولكن الغريزة غلبت عليه ، فاشتد الصراع بيني وبينه ، وطرحني على

الأرض ، وجعل يمرغنى فى التراب ، حتى انخلع من قدمىّ فَرْدا «مَرْكوبى» الأحمر اللطيف .

يالهول هذا المنظر المُرَعِّب ، الذى شاهدته الأم ، حينما دخلت الدار قبيل الغروب ، فوجدت ابنها مع العجل ، مطروحاً بين يديه ، وقد طار فَرْدا نعله الصغير المحبوب ، فى وسط الدار ، ورأس العجل فوق صدر الطفل ، وهو ساكت لا يصرخ ولا يستغيث ! ! ولعلك تعجب ، كما عجبت الأم ، من سكون الطفل وهدوئه ، وهو يغالب العجل والعجل يغلبه ، أو وهو يصارع القوة والضعف يَصْرَعُه !

إنّ طفلاً فى هذه السِّن ، يرى الموت رأى العين — وإن لم يكن يدركه — ثم لا يبدى صياحاً وانزعاجاً ، لجدير ، إذا شبّ وترعرع ، أو إذا كَبِرَ وشاخ ، أن يتلقى حوادث الدهر وخطوبه ، بثباتٍ ورَباطةِ جأش ، ويبتسم للحوادث والنكبات ، غير عابئ بما فيها من خطر ، أو ما وراءها من هلاك ؛ ثم يقاسى ما يقاسى بلا صراخ ولا شكوى ، حيث لا يجدى واحد منهما ، كما يفعل بعض العجزة من ضعاف الإيمان .

أما ذلك العجل الصغير ، فقد شبّ شابّا نَطاحاً ، ولم يصلح للقَنِيَّة ، ولم ينفع للعمل فى الحقول ، رغم قوته وشبابه ، فبيع لحماً من أذاه ، وانتهت به الحال إلى المَجْزِر ، فى سن القوّة والفتوة .

(٣) هذا الطفل فى المشهدين السابقين ، كان يلهو ويلعب ، لا يشتغل بشىء فى المنزل ولا خارجه ، فهو يعبث بالقمح الذى غسلته أمُّه ، أو يداعب العجل الصغير يعلمه النطاح ؛ ولكنه الآن أضحى فَتًى عاملا ، يتناول بعض الأعمال المنزلية ، يتقرب بها إلى أمه ، المعجَبَةِ بيديه

الصغيرتين ، حينما يحضر لها شيئاً من الوقود ، أو يناولها ملحاً أو فلفلاً ، أو تابلاً من الأبزار التى تُتَوْبِلُ بها الطبيخ عصراً . يتبرع بهذا العمل فى ذلك الوقت ، لقاء قانصة من قوانص الدجاج ، أو قطعة من الكبد أو اللحم ، يتلمَّجُ بها قبل أن تمَدَّ مائدة العَشاء .

لست أدرى : أهذا الأجر ، أم هى الغريزة ، أو تلك شفقة الأم وحُنُوُّها على ابنها ، هو الذى غرس فى قلبه الغرام بخدمتها فى المنزل ؟ ! وربّات المنزل الريفيات تُعْوِزُهُنَّ المساعدةُ فى أعماله ، ولكنهن لا يستخدمن الخدم فى ذلك ؛ بل قد تعتمد السيدة على ابنتها الصغيرة . وأنا كما تعلم بكر أمى ؛ وقد حبّب إلىّ تعلق بها ، أن أكون دائماً بجانبها .

هى الآن تطبخ عصرًا ، كما هى عادة الريفيين فى إعداد العَشاء أو أكلة المساء ، وهى فى حاجة إلى شىء من الكمُّون ، وطفلها بجانبها يرقب الوقت الذى تطلب فيه هذا التابل ، الذى تحفظه فى قُلَّته الصغيرة التى كان يلهو بها زمانا . قد وضعت الأمُّ « قلة الكمون » فى مشكاة عالية ، خوفاً من عبث ابنها هذا ، ولكنه يريد أن يستأثر هو بإحضارها من مكانها ، لأن أمه مشغولة بتحريك الطبيخ فى القدر على الكانون . كيف يصل إلى تلك المشكاة ، وهى على ثلاثة أمثال طوله من الارتفاع ؟ ! لا تعوزه الحيلة فى الوصول إليها ؛ فهناك لَبِنٌ أو طوبٌ قد رُصَّ فى ركن من البيت ، بقرب تلك المشكاة أو الطاق ، وهو لذلك يتسلق هذا الطوب ، رغبة فى استحضار « قلة الكمون » وبينما الأم مشغولة بإزاحة الطُّفَاوة أو الزَّبَد من وجه القِدْر ، وفى يدها المِغْرَفة تكشط بها الرغوة الطافية ، إذا بها تسمع الطوب يكر كرًّا ، وابنها يسقط من فوقه ، ويكاد اللبِنُ يُواريه !

مسكينةٌ أنت أيتها الأم ! حبة قمح تدخل فى أذن ابنك مرة ، وعجل ينطحه أخرى ، ولم يبق إلا أن تشاهديه مدفوناً فى ثنايا اللبن أمامك ؟ ! ألقت الأم بالمغرفة من يدها ، وهرولت نحو ابنها ؛ وكأنه شعر بخطئه فى عدم الحيطة عند تسلق الطوب ، أو أنه أوجس فى نفسه عقوبةً من أمّه ، أو رأى على وجهها شحوباً من هذا المنظر المزعج ، فبادر الطفل بملاطفتها بألفاظه العذبة عندها ، وهو يرزح تحت أثقال اللبن ، ومدّ يده إليها قائلاً : ياسوفى يا أمّه ! (بإبدال الشين سيناً) أى يا نظرى ، خذى قلة الكمّون ! عاوزه حاجة تانيه يا أمَّهْ ! يا حبيبتى يا أمَّهْ ! يقول ذلك ، وقلبه مضطرب ، لا يدرى ماذا تفعل به أمّه ؟ ! إنها لا تبغى سوى إنقاذه من بين أنقاض الطوب ، وهو يسائلها عن رغبتها ، ناسياً ذاته ، جاهلاً أو متجاهلاً الخطر المحدق به فى تلك اللحظة .

(شكل ٦) خذى قلة الكمون !

تلك حال طفل صغير ، تُصوِّره رجلاً أصابه مرض شديد ، كان يتململ من ألمه ، فكان يخفى ذلك عن أمه ، إذ اقتربت منه أو جالسته . ولكن هل فاتها أن تتألم لابنها ، كلما استشفَّتْ مقدار وطأة ذلك المرض

عنده ؟ ! كان الألم يحز فى قلبها حزًّا ، كلما تذكرت مرضه ، كما كانت تألم ، وهى تشتغل بإخراجه من بين الأنقاض ، وهو يدارى عنها ما هو فيه من خطر .

(٤) سَلِم هذا الطفل من تلك الكوارث التى مرّت به ، والحمد لله ، وقد مضى زمن فيه حملت أمُّه مرة أخرى ، وكانت نَزُوراً . ترعرع هذا الغلامُ ، وصار فصيلاً . تراه الآن يدور فى المنزل أو خارجه ، يبتغى صيداً من العلم ، أو يتطلب قَبَساً من جَمْر الحياة . لا يفوته حدث من الحوادث فى المنزل حتى يشهده ، ليرى ما يجرى حوله . كيف لا وهو طلَعة بطبيعته ، والوقت وقت تحصيل ودراسة عنده ! هو مولَع بمشاهدة كل ما يستطيع مشاهدتَه ، وحضور كل ما يقع تحت حسه ، بدون تفرقة بين ما يحسن وما لا يحسن .

حدث الآن أن أجهضت الأمُّ ، وطفلها هذا لا يدرى ذلك ، ولكنه لم يفُتْه أن يشاهد كيف يدفن السِّقْط ! جلس رجال فى ركن من أركان البيت ، يحتفرون حفرة صغيرة ، ورأى من بينهم المرحوم الشيخ جوهر ، الذى جاء يوارى أخاه السِّقط ، فى ذلك اللحد المنزلى الصغير . راعَ هذا الطفلَ ما رأى من عملية الدفن ، ففزِع إلى أمه بعد ذلك يُعزّيها بعبارات ، هى أمشاجٌ من الوصف والتسلية ، يختمها بالأمانى الطيّبة : يا حبيبتى يا امَّهْ ! رَصُّوا عليه الطوب ! ما عليهش يا أمَّهْ ! ربنا يجيب غيره : بنت والّا ولد ! والّا ولد أحسن ، يروح معى الكُتّاب !

ترى من هذا الطفل الآن موقفاً ، يدل على الإدراك والعقل ، وتسمع منه ذكر الكتّاب ، وتفضيل البنين على البنات ؛ يقيس هذا التفضيل

بمقياس حاجته لمؤنس يذهب معه إلى الكُتَّاب . فماذا تظن أن كانت سِنُّه فى ذلك الوقت ؟ !

(شكل ٧) يعزى والدته بعد دفن السقط

لعلك تعتقد معى أنها كانت فوق أربع سنوات ودون السادسة ؛ ويغلب أنها كانت فى الخامسة ؛ ذلك لأن فترات الحمل عند أمه كانت نحو الأربع، وكان إدراك الطفل ولغته يقاربان هذه السن .

وليس يدرى هذا الطفل عن وقت ذهابه للكُتَّاب شيئاً ، إلا ما كان يسمع من أن « سيدنا » كان يتألَّفه ببيضع بلحات أو تمرات ، يشتريها بالفلس ، الذى كان الوالد يعطيه إياه لذلك . على أنك ترى أنه عند مغادرته الكتَّاب إلى الجامع الأحمدى ، بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم ، وحفظ بعض متون العلوم — كان أصغر الأولاد سنًّا ، إذ كان فى الحادية عشرة من عمره . وهو لذلك يرجح أنه كان بين يدى « الفقيه » ، فى سن الخامسة ، لا كغيره من أولاد الكتَّاب الذين كانوا يرسلون إليه كبارًا ، ويمكثون فيه إلى ما بعد المراهقة بسنوات .

لذلك تجد أن ما جاء فى هذه الرسالة ، وصف لحالة كتاتيب القرى ، قبل سنة ١٨٩٨ م ، حينما بدأ دبيب الإصلاح يدب فيها على يد نظارة المعارف ، فحولتها إلى كتاتيب إعانة ، واستمرت كذلك الى سنة ١٩١٣ فاستبدلت المكتب باسم الكتاب ؛ وفى سنة ١٩١٦ عدّلت الوزارة المناهج وخطة الدراسة بالمكاتب ، وأسمتها « مدارس أولية » ، كما لقبت الفقيه بالرئيس ، والعريف بالمعلم .

والآن ، الى الكُتّاب !

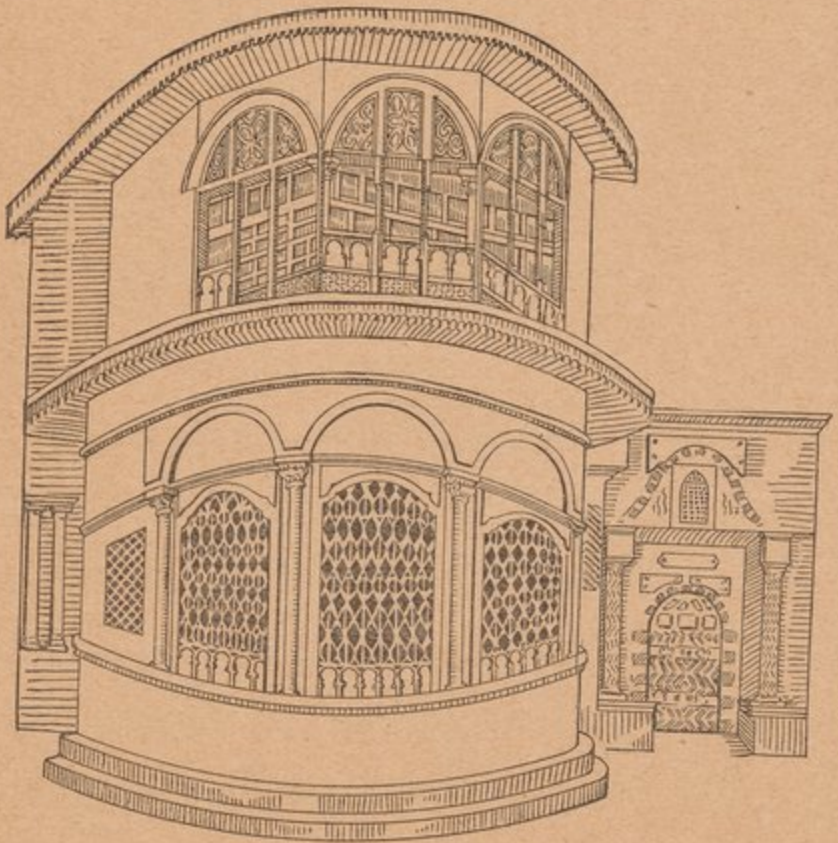

(شكل ٨) كتاب السلطان مصطفى بالسيدة زينب

كُتّاب الضريح

فى زاوية من زوايا المسجد، أو أمام مِحراب من محاريبه، أو فى فناء «تَكِيَّة» من التكايا، أو فى سبيل من السُّبل، أو فى ضريح من الأضرحة، أو مقبرة من المقابر، أو مدفن من المدافن، أو تحت شجرة من أشجار القرية، أو فى زقاق من أزِقّتها، جرى الناس فى ذلك الحين على أن يتخذوا مكاناً لتعليم الصبيان، كان يسمى «الكُتّاب».

(شكل ٩) كتاب فى زاوية المسجد

وكان الكتّاب فى المدن يختلف عنه فى القرى، كما كانت البيئة. فنظام الكتّاب ونظافته، وأوقاته وترتيبه، وتلاميذه ومعلموه، ومواد الدراسة، وأجور التعليم، يصيبها شىء من هذا الاختلاف. حتى لقد كان الكتّاب فى المدينة يسمى «المكتب» للدلالة على أنه أرقى من شقيقه الكتاب.

(شكل ١٠) كتاب فى ضريح

ولما كان من حظى أن أنشأ فى قرية ، فإنى سأنتسب إلى كتّابها ، وأقصر كلامى عليه؛ فانْتَقِلْ بنا إلى القُرى .

تعال معى الى قرية (كفرهورين) وهى من أعمال (مركز السنطة) التابع للمديرية الغربية ، تبعد عن القاهرة بنحو سبعين ميلا ، ولنطوّف بها لحظة حتى نرى تكوينها ونظامها .

هذه القرية ، كغيرها من سائر القرى فى القرن التاسع عشر ، كانت تتكون من أزِقَّة أو حارات تعرف الواحدة منها بالناحية . على كل ناحية باب كبير أو (بوّابة) يحرسها الخفير إذا جنَّ الليل ، بعد إغلاقها . وقريتنا هذه تتألف من خمس نواحٍ : (١) « القواسمية » أو ناحية « أولاد قاسم » ، وبها مسقط رأسى ، و (٢) « الجزافية » أو ناحية « أولاد جزاف » إلى الشرق منها ، وبها كان الكُتّاب الذى بدأت دراستى فيه ، ثم ناحية « أولاد سليمان » (٣) ، وناحية « الكسورة » (٤) وخامسها « الشهابية » أو حارة « أولاد شهاب » ، إلى الغرب من « القواسمية » ، وبها تمت

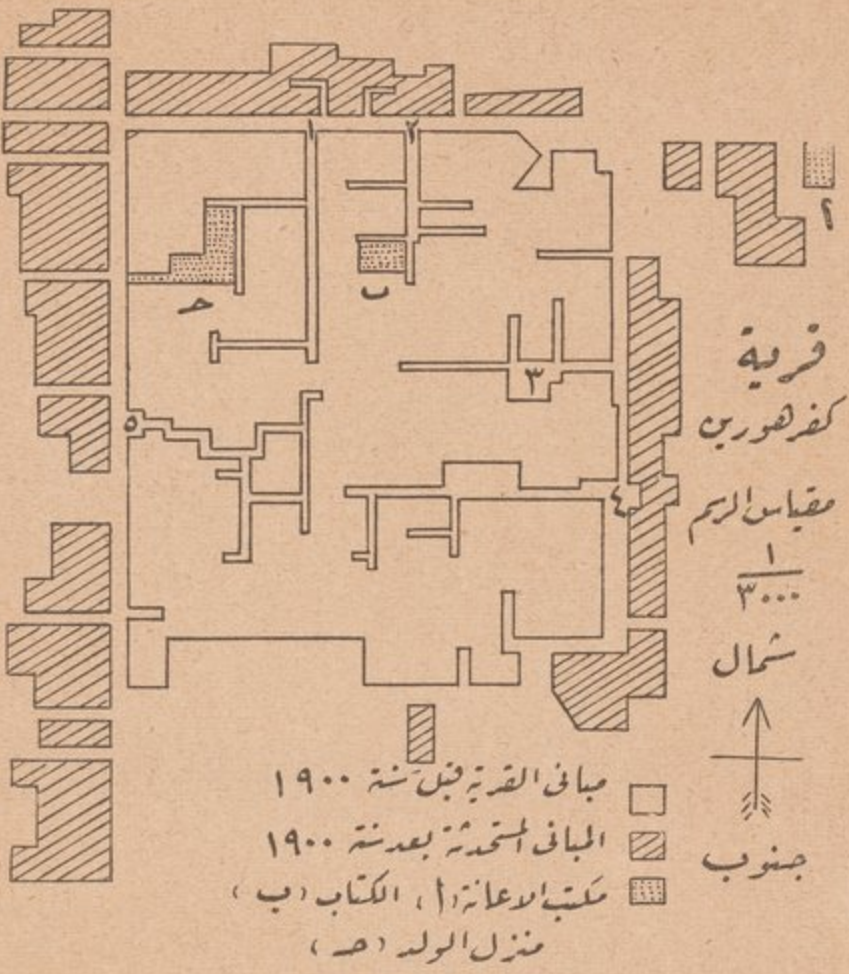

(شكل ١١) (١) حارة القواسمية (٢) حارة الجزافية
(٣) أولاد سليمان (٤) الكسورة (٥) أولاد شهاب

هـذه الخريطة منقولة عن خريطة من وضع الطالب أحمد على فرج بالهندسة الملكية سنة ١٩٣٤ (المهندس بالأشغال الآن) وقد نال بها الجائزة التى تبرع بها رئيس هيئة الطلبة الجوادية، مع رسالة (كفر هورين)

دائرة القرية، التى كانت تحاط بشارع كبير، أوسع كثيراً من تلك الحارات أو الأزقة.

وكان لكل حارة شبه استقلال فى أمورها الاجتماعية ، كأنها وحدة قائمة بذاتها . فلها دوّارها أو مضيفتها الخاصة ، تقيم فيه حفلاتها فى الأفراح

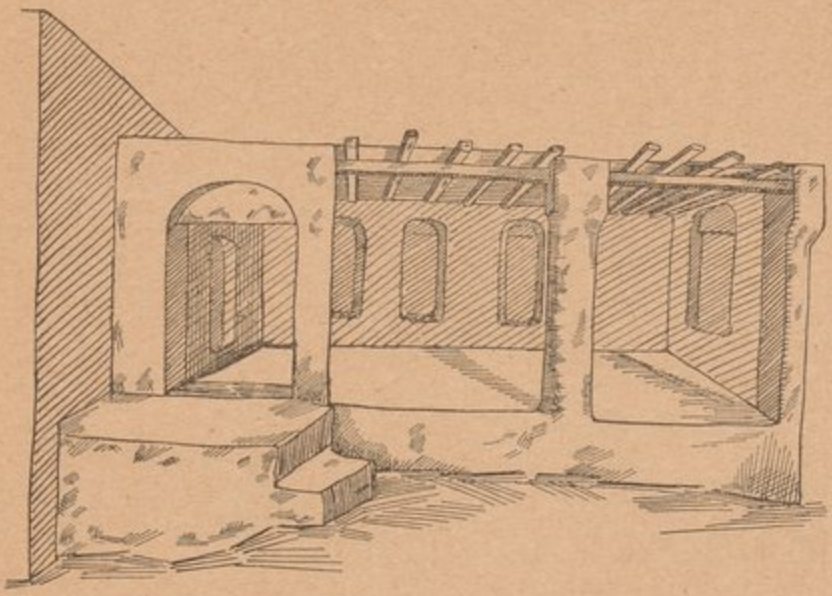

(شكل ١٢) مضيفة حارة (أولاد سليمان)

والأتراح ، وتجتمع فيه لِقِرَى الضيوف . ولها كُتابها الذى تختلف سمعته وسمعته ، تبعاً لاهتمام أهل هذه الحارة أو القرية بالتعليم فيه ، ولمنزلة الفقيه بين الناس ، من حيث التفاتُه لعمله وانقطاعُه له ، وغناه أو فقره ، وعماه أو بصره ، وقوته أو ضعفه ، وعلمه وجهله . فالفقيه الفقير ، الضعيف غير المبصر ، خير من غيره ، لتفرغه لعمله ، واستقراره فى مكانه ، وعنايته بأولاده (تلاميذه) .

لهذا تدرك السرّ فى تخطىّ كتاب « القواسميـــة » إلى كتاب « الجزافية » ؛ فقد كان الفقيه الكبير (سيدنا الشيخ ابراهيم القسط) وابنه الفقيه الصغير (سيدنا الشيخ سيد احمد) ، رحمهما الله — منقطعَيْن

لعملهما تمام الانقطاع ، ويمتازان عن غيرهما بمعرفة القراءات السبع أو العشر ، مع صلاح وتقوى ، هما عمادهما فى النجاح . فأقبل الأولاد على كتابهما من كل ناحية ، وهرع إليه القُرّاء من القرى المجاورة وغير المجاورة القريبة والبعيدة . رحلوا إليه لحفظ القرآن أو تجويده أو لتلقى الروايات السبع أو العشر ، على الفقيه الكبير .

(شكل ١٣)
الشيخ أبو المعاطى سالم مصطفى المقرىء الشهير
ممن قرءوا بالروايات السبع على الفقى الكبير
رحل من المنوفية إلى الغربية لذلك

أما مكان هذا الكُتاب قديماً ، فيذكره هذا الصبى كحلم نائم ، أنه كان يشغل حجرة فى زاوية من فناء مسجد القرية ، ولا يزال يتخيل تلك القناة التى كانت تمر به ، آتية من شَفَة البئر ، كى تمد المِيضأة بالماء . وقد أخبرنى شيخ كبير ، أن هذا

المكان كان يحتله قبل ذلك ، كتاب سيده الشيخ « محمد أبى شهاب » فقيه الآباء والاجداد .

أما كيف أو لماذا انتقل الكتاب من المسجد ، إلى مكانه الثانى ، فى مضيفة حارته ، فهذا ما لا يذكره الصبى .

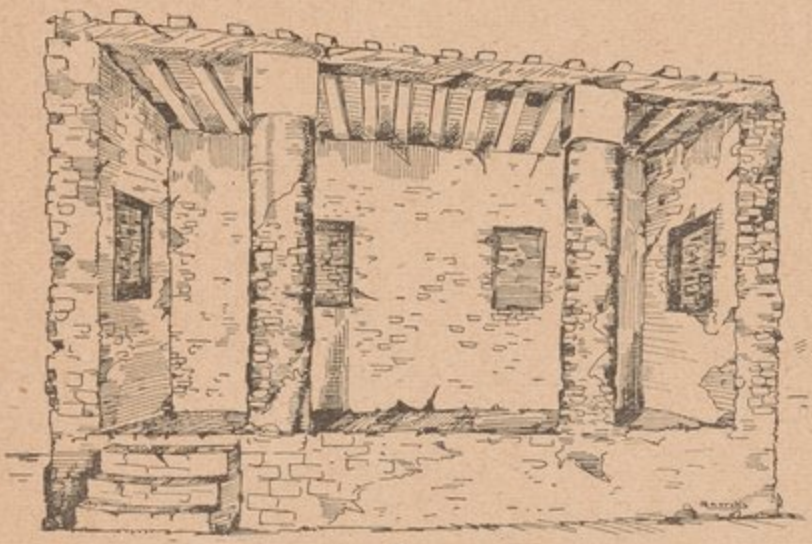

(شكل ١٤) المكان الثانى للكتاب (مضيفة حارة الجزافية)

تلك المضيفة ، عريش قائم على دُكَّان واسع أو مِصْطَبة ، ترتفع عن أرض الشارع بثلاث درجات ، تحيط بها ثلاثة حِياط ، ويعتمد سقفها على اسطوانتين من اللَّبِن فى واجهتها البحرية .

بقى الكتاب زمناً قصيراً ، ضيفاً فى هذه المضيفة ، ولم يلبث أن انتقل إلى مقره الثابت أو الأخير ، دار الفقى . على أنه كان يزور المضيفة لِمَاماً ، عند ما تشغل تلك الدار بعمارة أو نحوها .

استقر بمكانه هذا ، حتى داهمه النظام الحديث بعد خروجى منه فى

سنة ١٨٩٨ ، فاستقل بمكانه الخاص فى طرف من أطراف القرية ، حين اندمج فى سلك كتاتيب الإعانة ، وأصبح يُدْعَى فى القرية بالمدرسة[1] شكل (١٦) .

(شكل ١٥)
بطل الكتاب يزوره بعد ثلاثين عاماً من مغادرته

هذه دار الفقيه، وذلك هو الكتاب ، فى صحن منزل الفقيه الذى تقيم فيه أسرته ، وبعبارة أدَقّ فى مَدْخل داره .

هـذا هو السجن الذى كان يساق إليه الأولاد كل يوم ، وإن شئت حقاً فقل : هو الكعبة التى يحجون إليها رغم أنوفهم ، وهى كما قال المرحوم شوقى بك :

بيـــوت مُنَزَّهةٌ كالعتيـــق وإن لم تُستَرّ ولم تُحْجَبِ
يُدانى ثراها ثَرى مكَّةٍ ويَقرُب فى الطُّهر من يَثْرِبِ

---

(١) كان بالقرية فى ذلك الوقت ، اربعة كتاتيب أخرى ، كتاب سيدنا الشيخ متولى بحارة القواسمية ، وكتاب الشيخ سيد عيد بالشهابية ، وكتاب الشيخ محمد الفقي بحارة أولاد سليمان ، ثم كتيتيب الشيخ ابراهيم البرماوى بالكسورة . وقد تكوّن منها جميعا اتحاد شمله نظام الاعانة ، وبنى لها مدرسة أو مكان خاص فى الزاوية الشرقية البحرية من القرية ، ترى صورته فى شكل (١٦) وموقعه فى شكل (١١) حرف ا .

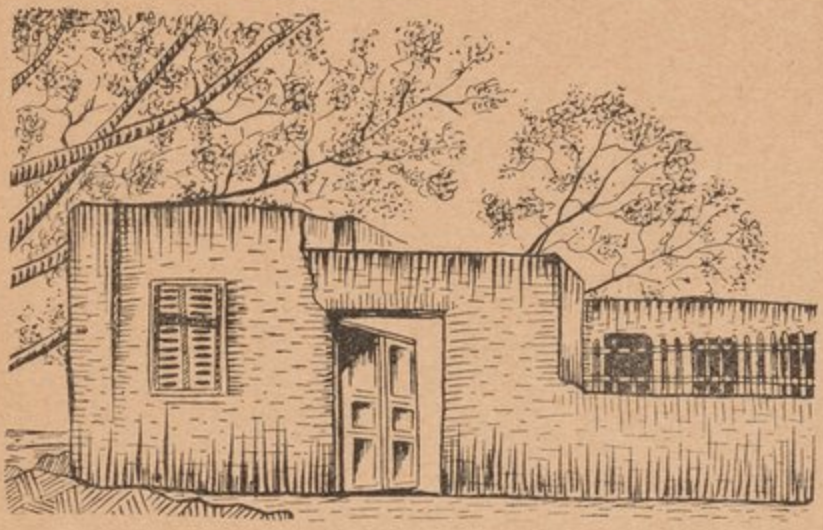

(شكل ١٦) مكتب الاعانة أو المدرسة، بعد استقلاله

منزل له باب واسع، ودهليز مستطيل، عن يمينه قاعة وعن يساره أخرى؛ وأمام الداخل سُلَّم من اللَّبِن، درجاته لا تعدو العشرين،

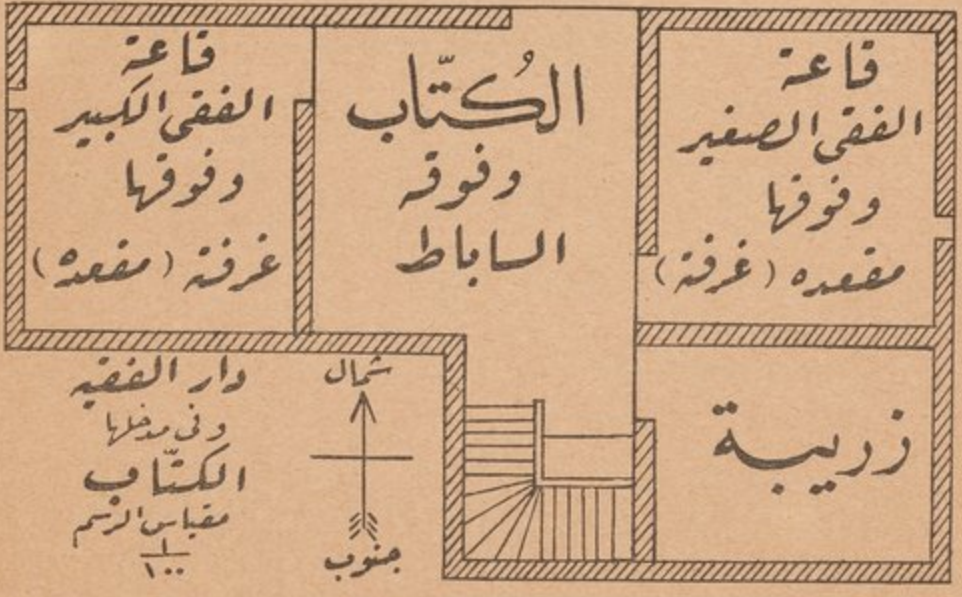

(شكل ١٧)

(شكل ١٨) منزل الفقيه

وعن يساره حجرة قَذِرة أو زَريبة لا باب عليها . أما الدهليز فهو مقام الأولاد فى معظم أيام السنة ؛ وفى القليل منها ، حينما يشتد الحر ، ينتقل الكتاب أو الأولاد إلى الطبق الأعلى ، حيث يوجد ساباط أو سقيفة فوق هذا الدهليز ، عن يمينها مَقْعَد أو غرفة ، وعن يسارها آخر ، فوق القاعتين السفليين شكل (٢١) .

لِجِ الباب معى ، تجد الفقيه عن شمالك ، قد أسند ظهره لخشب الباب ، وجلس القُرفُصاء ، إن كان لديه عمل خارج الكتَّاب يريد أن يؤديه بعد لحظة ؛ أو افترش قطعة من الحصير القديم ، أو فروة الضأن ، إذا أراد الإقامة . وفى كلتا الحالين تجد بجانبه عصاه أو عكازته ، وحدها أو مع جريدة النخل ، أداة الجلد الخاصة . وبجواره أو بعيداً عنه قليلا ، جلس « العريف » وحوله الأولاد .

أما زوجة الفقيه وبناته ، فقد يجلسن أيضاً فى الدهليز ، مع الأولاد ، يَنْتَحِين ناحية منـه ، يشتغلن برَتْق فتق ، أو خياطة مرقَّع ، أو إعداد

طعام ، أو تفريط ذرة ، أو غربلة قمح أو ما شابه ذلك .

انظر إلى ذلك الطاق أو الكوّة غير النافذة فى الحائط ، تجد بها أدوات الأولاد من مصاحف ومحابر ودويان وأقلام ، وهناك وتدٌ أو مسمار تُعلَّق عليه الألواح ، أو المصاحف فى خرائطها . أدِرْ نظرك تجد الجرّة مملوءة بالماء ، وأمامها كوز من الصفيح يستقى منه الأولاد ، وبجوارها كانون تطهو عليه زوجة الفقيه طعامها بعد انصراف الأولاد عصراً .

(شكل ١٩) الجزء الأمامى من الكتاب يزوره « أبو حلاه » هو وأولاده بعد ثلاثين سنة فتجهز له امرأة الفقى القهوة

ونحن ، ولله الحمد ، لم يكن لدى فقيهنا ماشية تطؤنا بحوافرها داخلة أو خارجة ، بل كل ما كان يصيبنا ، هو بنت الفقيه خارجة بجرتها

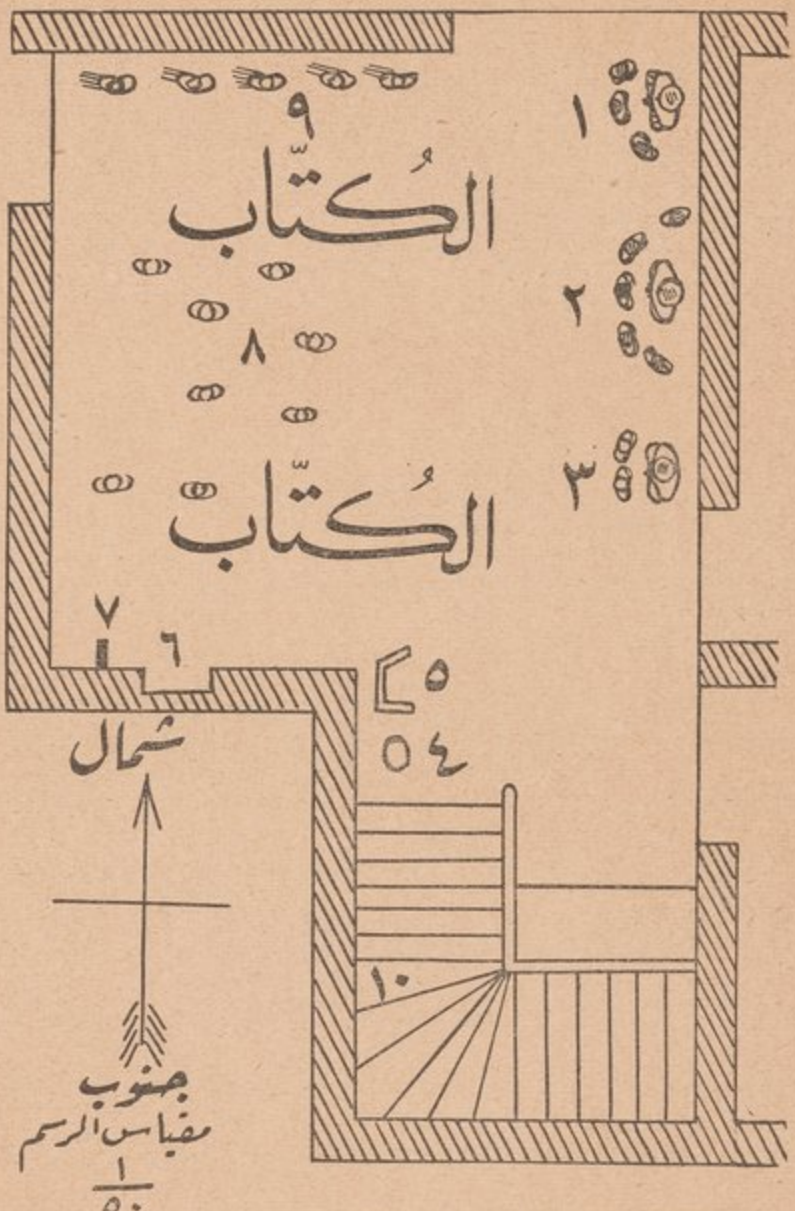

(شكل ٢٠) (١) مجلس الفقيه (٢) مجلس العريف
(٣) امرأة الفقي وبناتة (٤) جرة الماء (٥) الكانون
(٦) طاق الأدوات المدرسية (٧) وتد الألواح
(٨) بعض الأولاد مبعثرين (٩) بعض الأولاد أمام الحائط (١٠) السلم

الفارغة ، فإذا عادت بها مملوءة أسرع واحد من كبار الأولاد ، ليساعدها فى حطّ الجرة من فوق رأسها ؛ وويل للأولاد إذا تباطئوا فى ذلك وشعر به الفقيه ! كذلك لم يكن لديه من الأعمال المنزلية ما يشغل به الأولاد ، من كنس غرفته أو تنفيض حصيره التى ينام عليها ؛ لأن ذلك من عمل بناته .

لا أدعك تغادر الكُتّاب قبل أن أنبهك إلى أنه لم يكن به نوافذ ، غير الباب ؛ فالضوء فيه قليل إذا ازْوَرّت عنه الشمس ، والتهوية ضئيلة. أما الجُدْران فهى مُطيَّنة ، لا تطلى بالجير أو الجص ، إلا فى أيام الأوبئة عند ما تشتد الحكومة فى أمر تنظيف المنازل فى القرى ، من كنس ورش ، وتبييض أو تجصيص .

ومرافق المنزل — كما رأيت — ليس بها إلا زريبة ، هى لأسرة الفقيه خاصة ، ويحرم على الأولاد الدُّنُوّ منها . وليس به مرحاض ؛ فإذا أراد أحد الأولاد قضاء حاجته استأذن الفقيه أو العريف ، فمدَّ يدَه إليه قائلاً : زىّ الناس ! فيضرب له بأصابعه عليها ، علامة الإذن . يخرج الولد إلى الحقول ، أو كومات السماد المنتشرة حول القرية ، أو إلى إحدى الزرائب ، أو مراحيض المسجد ، إن وجدت على مقربة من الكتّاب — ليقضى حاجته . وقد يكون خروج الولد من الكتّاب لهذا الغرض تكلُّفا وتصَنُّعا ، يتخذه لقضاء مآرب أخرى ، فيحذره الفقيه طول الغياب . وقد يبصق له العريف على الأرض بصقة ، يتخذ جفافها مقياساً للزمن الذى يباح له فيه غيابه عن الكتّاب ؛ فإذا ما جفت قبل عودته فالويل له من الفقيه !

أما ماء الشرب فقد رأيته فى الجرة غير مُرَوَّق ولا مرشح ؛ وربما كانت القناة أو المَرْوَى المستقَى منها غير نظيفة ، فكان الماء عكراً ، كما فى أيام الفيضان ، أو آسناً كما يحصل فى أيام الجفاف .

وقد وجدتَ الكتاب خِلْواً من الفرش ، غير قطعتين أو ثلاث من الحصير القديم المهلهل ، يجلس عليها الفقيه والعريف ، وبعض الصبيان الممتازين من أولاد الأغنياء . أمّا عامّة الأولاد فيفترشون أرض الدهليز الذى يُكنَسُ صباحاً ، غير متحرزين من تراب يعلق بثيابهم ، ومداد يلوّث أصابعهم وملابسهم ، حينما يمسحون ألواحهم أو يكتبونها . وهم فى جلوسهم بين انحناء يُقوّس الظهر ، واهتزاز يَرُجّ المخّ ، عند القراءة والكتابة ، قد يرافقان الرجل فى كهولته ، فتعرفه حينما يهتز عند سماع القرآن .

لا عجب بعد هذا كله ، إذا شهدت فى وجوه الأولاد شحوباً واصفراراً ، وفى عيونهم رَمَصاً أو عوراً ، وفى رءوس بعضهم سَعْفَة أو قَرعاً ، أو إذا أحسست فى عزائمهم فتوراً ، وفى قُوَاهم خَوَرا .

وإنك على ما رأيت من ضآلة هذا الكتاب أو حقارته ، قد تعتبره من خير الأمكنة ، على ما يظهر . « وهاك ما جاء فى تقرير لأحد المفتشين ، على الكتاتيب غير اللائقة من كتاتيب الوجه القبلى :

« إن منها ما هى أكواخ ضيقة ، فاسدة الهواء ، منخفضة السقوف ، لا يتيسر الوقوف فيها ولا الدخول من أبوابها إلا مع الانحناء الزائد . ومنها ما هى مساطب قليلة المساحة ، فى مداخل البيوت . ومنها ما هى حيشان بيوت صغيرة ، يختلط فيها أولاد المكتب مع أفراد عائلة الفقيه .

هذه كائنة فى قاعات غير صحية ، لا يتجدد هواؤها ، ولا يتخللها النور الكافى ، وتلك فى مساجد تضر مراحيضها بصحة الأطفال »[1]

وعلى الرغم من هذا كله ، ومن اهمال الطرق الصحية العامة بالكُتاب ، كنت ترى فيه اتّباع بعض القواعد الصحية الحديثة ، صيفاً وشتاء . فقد كان الفقيه يبيح للأولاد التدفئة فى الشتاء ، فيستحضرون قطعاً من الخشب ، أو « قوالحَ الذرة » من منازلهم ، يوقدونها فى الصباح ، يستدفئون بها قبل ابتداء الدرس أو الكتّاب ؛ وكان هذا مجال منافسة بين أولاد الأغنياء ، فى ملء حجورهم بالوقود ، وكانت فرصة حسنة لأسرة الفقيه يحجز منها بعض وقوده الخاص ، وإن كان له الحق فى أن يستورد كل ذلك علناً من منازل أولاد الكتاب .

أما فى الصيف ، فكانت نومة القيلولة مباحة ، إذا اشتد الحر ، فيمنحها الفقية للأولاد ، بل يحفز بها همتهم للاسراع فى أداء الواجب بعد الظهر ، من تثبيت الماضى ، أو حفظ الألواح ، أو غير ذلك . وفى وقت النوم يَحْظرُ على الأولاد الكلامَ أو الهمسَ أو الحركةَ ، ويضع لهم مقياساً للسكون ، هو أن يسمع طنين الذباب فوق وجوههم . على أن مكان الدراسة أو الكتاب ، كان ينقل إلى الطبق الأعلى من منزل الفقيه ، حيث النوافذ فى الساباط كثيرة ، والضوء أكثر ، والهواء أنقى ، والجو أقل حرارة ، وأعدل هواء .

---

(١) من تقرير (المرحوم) حسين رشدى (باشا) المفتش بنظارة المعارف ، المرفوع لجناب السكرتير العمومى بتاريخ ٢٦ من يناير سنة ١٨٩٩ ص ٢٩ طبعة بولاق .

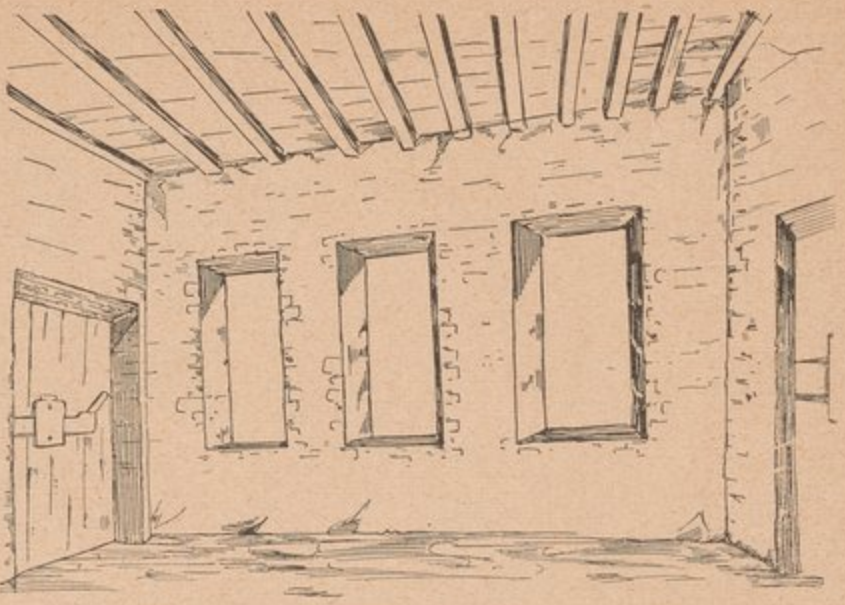

(شكل ٢١) السابَاط أو مكان الكتاب فى الصيف

وبعدُ، فإليك رحلة الصبي من منزله إلى هذا الكتاب :

أمامك طفل صغير، يلبس جِلْبابا أو دِثَارا، تحته شعار من كَتَّانٍ غزلَتْه غَزّالاتُ القرية، وحاكه منوال الحارة؛ وفوق رأسه قلنسوة من نسيج القطن، أوسكبة من الصوف؛ وفى رجليه حذاء لا تلبث جِدَّته إلا أياماً معدودات، يصبح بعدها نعلا بلا عقب. وقلما ستر صدرَه الثوبُ

شكل (٢٢)
يحمل مصحفه فى خريطة إلى الكتاب

(شكل ٢٣)
سكبة الصوف على رأسه

المعروفُ بالصُّدَيْرى ، إلا إذا تقدمت به السِّنُّ فى الكُتاب ، حين يَضُمُّ إلى ملابسه صِنفاً من السراويل . هذه الملابس هى المثل الأعلى بين أولاد الكتاب ؛ إذ كان كثير منهم لا يلبس إلا فرداً من الثياب لا شعار تحته ، ولا نعل فى قدميه .

يوقظ هذا الطفلَ أبواه فى الصباح ، قبيل شروق الشمس ، ويدعُوَانِهِ إلى غسل وجهه وإفطاره ، ليستعد للذهاب إلى الكتاب ؛ وقد يحمل فى يده أو فى شَيَّالته (جيبه) رغيفاً أو كسرة منه يتبَلَّغُ بها حتى أو حين يصل إليه.

يخرج الولد من المنزل كأنما يساق إلى عمل شاق ، ويخترق حارته ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، يتلمس العراقيل فى طريقه ، حتى يصل إلى الحارة الثانية ، التى بها كُتّابه ، فيمر فى

(شكل ٢٤) فى طريقه إلى الكتاب
يمر بالعجائز أمام بيوتهن

طريقه على العجائز ، والنساء الجالسات على أبواب الدور فى الصباح ، يرثين لحال هذا الصبى الذى حُرِم لذة المعيشة فى الحقول وحق عليه الحبس فى الكُتاب ، أو يغبطنه على ملابسه الجديدة النظيفة ، أو على ما يعرفن من تقدمه فى القرآن الكريم ! وبعد لأى يصل الطفل إلى باب الكتاب ، فيقف هنيهة ، يتردد فى ولوجه ، ويتسمع الأصوات من داخله ، ليعلم مَنْ هنالك حتى تطمئن نفسه ، ويسكن جأشه ، ويستعد لملاقاة الفقيه ، والإجابة عن أسباب تأخره إذا كان قد تأخر . ولا يفوته فى هذه الحالة أن يضع فى شيالته أو جيبه لقمة من الخبز الفطير ، أو قرصة من الخبز الخمير ، أو شيئاً من الفاكهة أو الخضر الحاضرة ، كجميزة أو خيارة أو نحوها ، يلهو بها الفقيه عنه ، حينما يعثر عليها ، وهو يتحسس ملابسه ، ليفتش عن هذا الرزق ، الذى اعتاد أن يحمله إليه هذا الولد بين صباح وصباح . أما إذا لم يحمل شيئاً من هذا فقد يقذف به الفقيه فى داخل الكتاب ، بعد أن ينشب أظافره فى فخذه ، أو يودّعه بعصا أو جريدة تنزل على قفاه أو على ظهره . وإذا لطف الله

شكل (٢٥) وقف على باب الكتاب قبل دخوله

به وجد الفقيه مشغولاً فى شأن من شئونه ، داخل الدار أو خارجها ، فدخل الكتاب بسلام .

هذا المكان المتواضع ، الذى مر بك وصفه ، كان يجلس فى مثله كثير من العظماء فى مصر ، ومن وزراء الدولة وكبار رجالاتها ، أمثال المرحومين على مبارك باشا ، وسعد زغلول باشا ، وأحمد حشمت باشا ، من وزراء المعارف السابقين . وله الفضل فى نبوغ عدد من أبناء مصر ، يذكرهم التاريخ مع كتّابهم هذا .

هؤلاء العظماء ، وكل الذين درجوا فى الكتاب من أبناء ذلك العهد ، لم يعرفوا فيه المقاعد والقماطر ولا الكتب والدفاتر ، ولا الكراسات والكنّاشات ، ولا المساطر والنشاف ؛ بل أدوات الدراسة فيه لا تتجاوز بضعة مصاحف ، وجملة ألواح ، وعدداً من الدويان والأقلام .

شكل (٢٦) المصحف الشريف

فلنتحدث بعدُ عن هذه الأدوات الدراسية .

أدوات الدراسة

(١) هذا هو المصحف الشريف ، وهو كتاب الله العزيز ، وهو كل ما فى الكتاب من مطبوعات . وقد ترى بعض الأولاد فى طريقه للدار أو الكتاب ، وقد علّق فى رقبته « خريطة » أو كيساً يتدلى إلى أسفل بطنه أو تحت إبطه ؛ كما تراه فى شكل (٢٧) .

(شكل ٢٧)
يحمل مصحفه فى خريطة

ذلك هو كِساء المصحف ووعاؤه ، يحمله فيه الولد إلى منزله لحاجته إليه هناك ، فى استذكار « ماض » أو قراءة « حصة » أو يودعه إياه ثم يعلقه على وتد أو مسمار فى الكتاب أُعِدّ كل منهما لتعلق عليه الألواح والمصاحف . وقد يبقى هذا المصحف سنوات حتى ينتهى صاحبه من حفظ ما بين دفتيه ، أو يسارع به إلى البِلَى والتمزيق استعمالُه يوميًّا ، صباحا ومساء ، فيستهلك غيره واحداً أو اثنين . لذا فكرت دور الطباعة أخيرًا فى طبع الأجزاء الأخيرة منه ، لسهولة استهلاكها ، ولطول الزمن الذى يقضيه الولد فى حفظها ، وشاع استعمال الجزء الثلاثين أو العُشْر الأخير حديثاً ، وكان يندر رؤية هذه الأجزاء فى ذلك العهد .

(٢) تلك كتلة من الألواح ، معلقة على وتدأو مسمار ، أو موضوعة فى طاق ، أو سُدَّة ، أى كوّة غير نافذة ، أو مرصوصة على دُكان أو مِصْطبة فى الكتاب . هذا لوح من الصفيح ثمنه فلسان « مليمان » ، قد ثقب من أعلاه ، ووضع فيه خيط ، أو علاقة كحمالة السيف ، وهو لأولاد فقراء الناس . وذلك لوح من الخشب المطلى بطلاء أبيض أو أصفر أو أحمر ، قد زركش أعلاه بألوان ونقوش تكاد تحد فى جميعها ، وترك فى رأسه قطعة منه صغيرة يمسك بها الولد ، وقد علق بعلاقة تمر من ثقب به كأخيه اللوح الصفيحى . وهـذا الصنف الثانى من الألواح يتراوح ثمنه بين عشرة ، وعشرين فلساً ، ويختص به أولاد الأغنياء .

(شكل٢٨) الوتد عليه الألواح

وإذا تقادم عليه العهد عنـد واحد منهم وأخذ طلاؤه ينمحى ، فربما خلعه الفقيه على ولد مُسْتَجَدّ صغير ، أو على ولد متقدم من ولاد الفقراء .

وقد يضع بعض الأولاد فى العلاقة فرجونا « شُرَّابة » أو خصلة من خيط الصوف أو القطن ، يستعين بها على

(شكل٢٩) لوح الصفيح

محو اللوح ، بدلاً من تلويث يده وأصابعه وثيابه بالمداد عند ذلك . وقد أصبح بعض الأولاد يمحو لوحه بالماء والفرجون ، بعد أن كان يفعل ذلك بريقه ويده أو ثوبه .

ولكن ما فائدة هـــذه الألواح مع المصاحف ؟ !

كان على الولد ألا يستخدم المصحف فى القراءة ، إلا عند استذكار «الماضى» المحفوظ أو «تثبيته» ، أو عند نقل الجزء المقرر حفظه فى اللوح ، وهو الدرس الجديد اليومى ؛ فيكتب الولد فى أحد وجهى اللوح ، الجزء الذى يريد حفظـــه ، نقلا عن المصحف ، ثم يدع هذا جانباً ، ويستخدم اللوح فى القـــراءة أو الحفظ حتى يُسمعه آخر النهار .

(شكل ٣٠) لوح من الخشب

فإذا جاء اليوم التالى وأتقن حفظه أدار الوجه الثانى ، وكتب فيه درساً أو لوحاً ثانياً ؛ فإذا أتم حفظه فى اليوم الثالث ، وأراد حفظ لوح جديد ، محا الوجه الأول وكتب فيه لوحاً جديداً ؛ وهكذا ، كل يوم يحفظ لوحاً أو درساً ، يمحو ما قبله ليكتب فيه ما بعده . وبهذه الكيفية

يتم الولد حفظ القرآن الكريم فى سنوات تختلف عدتها، تبعاً لقوة حافظته أو ضعفها، ولدرجة مواظبته على التردد إلى الكتاب، ولعناية الفقيه به، ومقدار اهتمام والده بتعليمه.

(٣) فتش فى هذا الطاق تجد الدويان والأقلام بجانب بعض المصاحف والألواح. فالأقلام لا تعدو أنها أنابيب من القصب المصرى (الغاب) يختلف غلظها من الخنصر إلى الابهام. أما الدويان فهى محابر من الطين المطبوخ، ثمن الواحدة فلس أو نحوه، صبغت بطلاء أخضر أو أحمر؛ وفى داخلها «الليقة» وهى خرقة من النسيج القديم، غمست فى المداد.

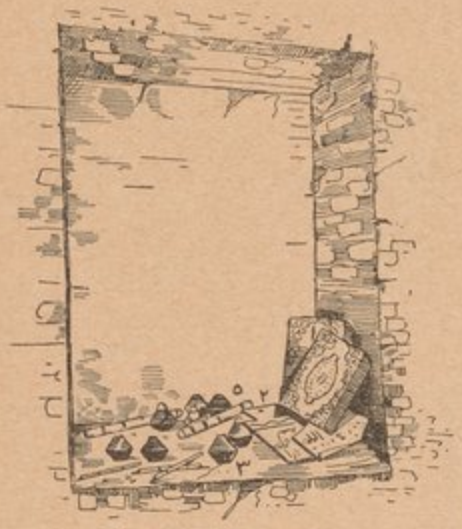

شكل (٣١) الأدوات فى الطاق

(١) المصحف (٢) الألواح (٣) الدويان
(٤) الأقلام (٥) الدواة والمقلمة

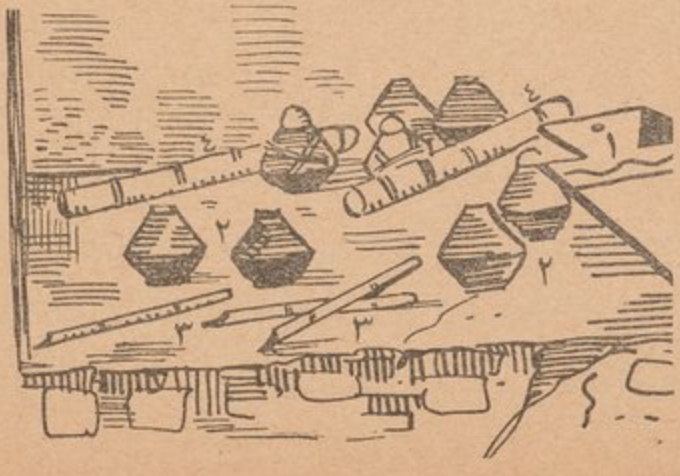

شكل (٣٢) بعض أدوات الدراسة

(١) اللوح
(٢) الدويان
(٣) الأقلام
(٤) الدواة ذات المقلمة

وإنى ذاكر لك مم يتكون هذا المداد ، ولكن لا تسخر من الحالة الفطرية والأدوات الفطرية ! قد كان هذا المداد ذوب أصابع من الحبر ، هى قوالب مجمدة من السِّناج أو « الهَباب » ، وكان الثلاثة أو الأربعة منها برغيف صغير من دقيق الذرة ، أو « بقرش خردة » أو « عشرة بارة » أو فلس وربع الفلس . وإذا زاد ماء الحبر ، وضع الولد ذيل قميصه على فوهة الدواة ، وأخذ يضرب عليها بأصبعه قائلا :

يا فاطمـــه يا بنت النبى ! خدى الحبر السايح وهاتى الحبر السلطان

نكتب به كلام الله ! فى الألواح ! فى الألواح !

وبذلك يبخر قليل من الماء ، وتصلح الدواة ويجود الحبر .

هذا الصنف من المداد ، كان الكثير الشائع ، ولكنى أذكر أنى حينما تقدمت بى المدة فى الكتاب ، وقبيل مغادرته بسنتين أو أكثر ، تعلمت من ولد كبير صناعة صنف كيميائى من المداد ، وذلك بنقع قليل من القرظ فى الماء نحو أسبوعين ، يعلو فيهما العفن أو الزبد وجه الماء ، ثم غليه مع إضافة شىء من العفص وملح أخضر كان يسمى «الجاز» ، وهو كبريتات الحديدوز المعروف بالزاج الاخضر . غير أن هذا الصنف لم يكن مرغوباً فيه ، لأنه مع غلائه كان شديد الالتصاق بالألواح ، وهى مهيأة للمحو يومياً ، وذلك يعمل على إزالة طلاء الألواح الخشبية ، ويسرع بالألواح الصفيحية إلى الصدأ والسواد .

تأمل هذه الدواة الممتازة ! ليس بالكتاب غير اثنتين أو ثلاث منها ، بجانب عشر من الدويان العادية ، كان يشترك فى الدواة منها ولدان أو عدة أولاد . هذه المحبرة (كما تراها فى الشكل) ، دواة من الفخار ،

ربطت أو عصبت إلى أنبوب غليظ من (الغاب) قطره نحو أنملتين ، وهو مجوف توضع فيه الأقلام ، فكان لذلك يسمى بالمقلمة ؛ وهو مسدود

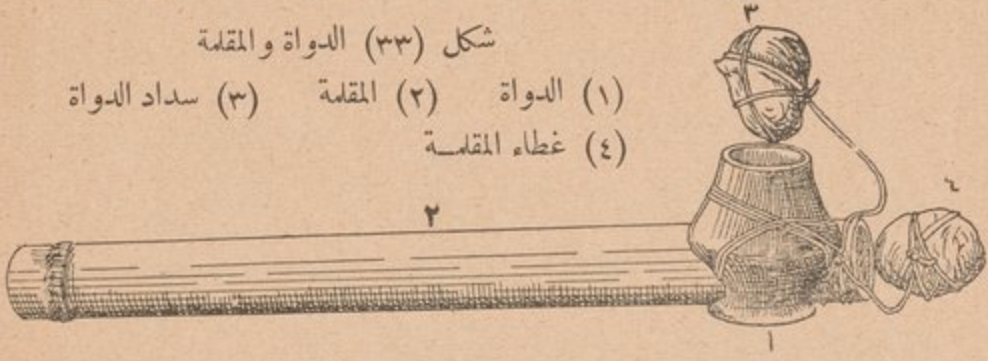

شكل (٣٣) الدواة والمقلمة
(١) الدواة (٢) المقلمة (٣) سداد الدواة
(٤) غطاء المقلمة

من أحد طرفيه بعقدته الطبيعية ، أما الطرف الآخر فيسد بكرة من الخرق البالية معصوبة بالخيط ؛ وتغطى الدواة بكرة أخرى ، تربط كلتاهما فى رباط الدواة بالمقلمة . وربما كان للدواة الواحدة مقلمتان ، تحزم إليهما الدواة ، بعد عمل تجويف صغير لها فيهما .

تلك الدواة الفطرية والمقلمة ، كانت تحاكى المحابر النحاسية المستعملة

شكل (٣٤) الدواة النحاسية ومقلمتها

فى ذلك العهد ، لدى النساخ والكتبة ، ومأذونى الشرع الشريف ، وعند صيارف القرى خاصة . وكان منظرًا مألوفاً أن ترى الواحد منهم ومقلمته بين قبائه ومنطقته ، يُزْهَى بذلك على عامة القرويين ويَدِلّ عليهم . فإذا أراد الكتابة استلها من منطقته ، كما كان يستل الجندى التركى خنجره ، ثم أخرج القلم ، ورفع الغطاء غطاء الدواة ، وبدأ يكتب ؛ ثم هو فى فترات الكتابة يضع القلم على أذنه مُعجَباً أيضاً .

وهناك سؤال لا مفر من الإجابة عليه ! كيف تجفف الألواح ؟ ! كان على الأولاد أن يلوّحوا بها فى الهواء، أو يقفوا بها فى الشمس ليجف مدادها . وقلما وضعوا شيئاً من التراب عليها احتراماً لكلام الله تعالى ، وإن كان التراب كثير الاستعمال فى تجفيف الكتابة فى ذلك الحين ، لأن ورق النشاف لم يكن شائعاً . وقد تطورت أدوات التجفيف فوضعت مِرْمَلة أو رَمَّالة بجانب الدواة لترميل الكتابة . فبعد كتابة الورقة يُذرُّ قليل من الرماد أو الرمل عليها فيعلق بها بعضه ، ثم تنفض ثانية بعد أن يكون الرماد أو الرمل قد تشربَ المداد الزائد .

(٤) كان والدى رحمه الله شيخاً متديناً ، يحترم القرآن الكريم ويعظمه ؛ ويرى من تقديسه أن يوضع المصحف على كرسى خاص به . أوصى نجار القرية بصنعه ، فكنت أضع عليه المصحف عند النقل منه أو القراءة فيه ، صوناً له واحتراماً واتقاء تقويس الظهر من الانحناء عليه إذا وضع فى الحجر .

شكل (٣٥) كرسى المصحف

هذا الكرسى (كما ترى) صورة صغيرة فطرية للكراسى الثمينة المحفوظة فى دار الآثار العربية . ويتكون من قطعتين من الخشب ،

تعشقتا، فكونتا أربع زوايا يختلف انفراجها. وكان بعض هذه الكراسى يتخذ من جريد النخل بدل الخشب، فى الأقاليم التى يكثر فيها النخيل.

ولست ترى فى الكتاب من هذه الكراسى إلا واحداً أو اثنين فقط، لخاصة الأولاد الممتازين. أما أولئك الأولاد الذين لم يسعدهم الحال باتخاذ كراسى لمصاحفهم، فقد كانوا يضعونها فى حجورهم، بعد جلوسهم متربعين، فيضع الولد المصحف على رجْل، واللوح بجانبه حين يكتب منه، أو يمسكه بيديه مفتوحاً حين يقرأ منه.

شكل (٣٦) ينقل اللوح من المصحف وهما على ركبتيه

وتستلزم عملية النقل من المصحف بهذه الكيفية الانحناء عليه والانكباب فوقه، وخاصة إذا ضعف بصر الولد، كما هو الغالب. ولذلك غلب على أولاد الكتاب، من جراء ذلك، احديداب الظهر وتقويسه، مضافاً ذلك إلى مخالفة القواعد الصحية الأخرى فى الكتاب.

تلك هى أدوات الدراسة بالكتاب، فلننظر بعدُ فيم كانت تُستخدم هذه الأدوات من المواد الدراسية.

مواد الدراسة وأغراضها

لقد عَرَضْنا عليك أدوات الدراسة فى الكُتاب ، وأغلب الظن أن فطنتك لا تسمح بعدئذ بالسؤال عن مواد الدراسة فيه ؛ إذ كل ما رأيت من الكتب والدفاتر ، إنما هو المصحف الشريف ، وسائر الأدوات خدَمٌ له .

فكانت دراسة القرآن الكريم أو حفظه ، هى المقصد الأسمى فى نظر « سيدنا » وفى نظر آباء الأولاد ؛ بل كان حفظه وتلاوته من أفضل القُرَب التى يُتقرَّبُ بها إلى الله . ولا تظن أن المراد بالدراسة هنا شرحه وفهم معناه ، فهذا لم يكن فى خطة الدراسة ! بل إنك لو اختبرت « سيدنا » أو « الفقيه » فى معنى كلمة أو فى تفسير آية ، لما ظفرت منه بشىء فى هذه الناحية ، اللهم إلا إذا كانت هذه الآية من المعلومات العامة التى يسهل عليه إدراك معناها . وندر من الفقهاء من كان يُلم بطرف من أسرار آى الذكر الحكيم ، أمثال « الفقى » الكبير ، لأنه كان يقرأ بالروايات العشر ، ولأنه كان مُتَنوِّرًا ، يستمع كثيرًا للقراءة فى كتب الوعظ والإرشاد ، العامة المشهورة ، المحشوة بالحكايات والأقاصيص ، التى بثها المؤلفون فيها ، للترغيب والترهيب ، أمثال « تنبيه الغافلين » للسمرقندى و « روض الرياحين فى مناقب الصالحين » لليافعى و « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » لابن إياس ، وكذلك بعض الكتب الدينية والأخلاقية الأخرى ، مثل « أدب الدنيا والدين » الماوردى و « قصص الأنبياء » للثعلبى ، و « طبقات الشعرانى » و « إحياء العلوم » للغزالى ، وغيرها من كتب السيَر والقصص .

لهذا كانت مدارسة القرآن بالكُتَّاب لا تعدو حفظه ، وتلاوته لتثبيته . وقلَّ من أولاد الكتاب من كان يتلوه تلاوة مُجَوَّدة أو يقرأ « الخَتْمَة » للتجويد بعد إتمام حفظه ، مراعياً فيهِ إخراج الحروف من مخارجها ، مع المد والغن ، والإظهار والإخفاء ، ومراعاة القلب والإدغام وأل الشمسية والقمرية ، والمد الجائز واللازم ، والطبيعى ، وغيرها .

ولعلك سائل بعد هذا ، عن الفوائد الدنيوية التى كانت تأتى من حفظ القرآن ، بعد مراعاة الفكرة الدينية فى دراسته وتلاوته ؟ !

كان كثير من الآباء ، أو الأمهات (الأرامل) ، يرسلون أولادهم للكتاب ، أملا فى تحقيق بعض المقاصد الآتية :

(١) أن ينتفع الولد بما حفظ من القرآن الكريم ، فيُقْرِئه الناسَ فى كتَّاب الفقيه أو فى كُتَّاب خاص به ، أو أن يقرأه هو مرتلاً ، على الناس فى المآتم والافراح ، بعد حفظ بعض القصص الدينية ، كقصة المولد النبوى والمعراج ، وحفظ بعض مقطعات أو قصائد ، فى المديح والغزل ، يتغنى بها فى الحفلات العامة ، وذلك إذا كان الولد حسن الصوت غالباً .

وكان ، ولا يزال ، يفشو فى القرى والمدن ، ترتيب من يقرأ القرآن فى المنازل يومياً ، أو فى أيام معينة من الأسبوع ، وفى يوم الخميس والجمعة خاصة ؛ يقرأ ما تيسر من القرآن على روح الأموات ، أى أن يهب القارىء ثواباً مثل ثواب ما قرأ ، لروح فلان أو فلان الميت ؛ ويعرف هذا عرفاً بالراتب .

(٢) كان قانون « القرعة العسكرية » فى هذا العهد يعفى مِنْ حمل السلاح بعض الطوائف والأفراد ، كمن يدفع البدل النقدى وقدره

عشرون دينارًا (جنيهاً) مصرياً، أو مَنْ يكون من حَمَلة القرآن الكريم؛ فيعقد مجلس القرعة امتحاناً لطالبي الإعفاء لحفظه . وكان الإعفاء من الخدمة العسكرية غرضاً من أغراض حفظ القرآن الكريم بالكتاب، وخاصة عند بعض القرويين من الفلاحين، أو الفقراء الذين لا يستطيعون دفع البدل النقدى، أو لا يودون ترك أبنائهم يجندون، لحاجتهم إليهم فى العمل بجانبهم، ولأن روح الجندية فى ذلك الوقت كان مغزاها الزج بشباب الأمة إلى السودان، ومجاهل أفريقية، حيث يهلك كثير منهم، بالمرض أو القتل، فى معارك السودانيين، الذين كانوا كثيرًا ما يغيرون على الجيش ويناوئونه .

(٣) كان حفظ القرآن الكريم، فى ذلك العهد، فى نظر الريفيين خاصة، نوعاً من الثقافة، يفضُلُ بها « حامل كتاب الله » غيرَه من عامة القرويين، ويرتفع مرتبة يُغْبَط عليها، وقد يكون من أهم مظاهرها لبس العمامة المحرمة على غير الفقهاء وأصناف من الرجال .

لذلك كنت تصادف بين خريجى الكتاب، من كان جُلُّ همّ أبيه، أن يكون ابنه من « حملة القرآن الكريم » فقط ؛ فهو لا يريده مقرئاً ولا قارئاً، وهو لا يخاف عليه الجندية فيسعى فى اعفائه لحفظه القرآن ؛ بل يبغى من وراء حمل ابنه هذا العنوان أن يكون محترماً بين جهلة القرويين، فيخلعون عليه أيضاً لقب « الشيخ »، ويصبح وقد صار « الشيخ محمد » أو « الشيخ حموده » بعد أن كان يدعى بينهم « الواد محمد » أو « حموده » ؛ وكان لهذا اللقب الثانى مزايا لا يستهان بها، إذ يجعل

حامله إماماً للمصلين ، وله هيبة دينية ، واحترام يقدمه على غيره ، ممن لا يحفظون كتاب الله ، فى كثير من المواقف .

(٤) ومن أهم المقاصد والأغراض التى كانت تبعث على حفظ القرآن الكريم ، إعداد الأولاد لطلب العلم ، فى الجامع الأحمدى (بطنطا) ، أو فى الأزهر الشريف (بالقاهرة) ؛ فكان من أول شروط إلحاق الطالب بأحد هذين المعهدين ، أن يحفظ القرآن الكريم كله ، ويختبر فيه قبل اللحاق بالمعهد ، وقيد اسمه فيه .

شكل (٣٧) إلى الجامع الأحمدى

« ولقد حقق « أبو حلأة » هذا الغرض ، فركب أتانه ، بعد أن حمّلها متاعَه ، ثم سارت به مُيَمّمة شطر الجامع الأحمدى ، وأمه تطل عليه من فوق سطح بيته وهى تقول :

يا عروسَ الرَّوض يا ذاتَ الجناح — يا حمامَهْ
سافرى مصحوبة عند الصباح — بالسلامَهْ
واتركى قلبى المثقـــل بالجراح — وهُيامَهْ »[1]

تلك هى بعض مقاصد حفظ القرآن الكريم ، وهو الغرض الأساسى من رسالة الكتَّاب ونتيجته . غير أن هذا لا يمنعنا من أن نضيف إلى خطة الدراسة بالكتاب تعليم القراءة والكتابة ؛ فكان الولد يُرْسَلُ إلى الكتاب « لِيَفُك الخط » أى ليتعلم القراءة والكتابة فقط . وربما غادره قبل أن يحفظ القرآن الكريم ، لحاجة أبيه إليه فى الحقل ، أو مساعدته فى البيع والشراء ، أو خدمته فى صناعة من الصناعات .

وهنا يجدر بنا أن نقف قليلا لنرى كيف يتعلم الولد القراءة والكتابة ، مع أن الفقيه كفيف البصر ؟ ! كان الأولاد فى الكتاب يؤدون هذه المهمة ، بعضهم مع بعض ؛ فالكبير يقرئ الصغير ، ويعلمه كيف يكتب الحروف الهجائية .

وكان الأولاد الممتازون ، يمثلون العريف فى هذه الناحية ؛ فيأمر الفقيه « أبا رمضان » أن يُكتِّب « البِعْل » لوحه . ولم يكن الولد يتصل بالفقيه مباشرة ، أو يجلس أمامه للقراءة أو التصحيح والتسميع ، إلا بعد أن يكبر ويبتدىء فى الحفظ ، فيُسمِع الفقيه لوحه أو « يُصحِّه » عليه .

---

(١) من عبارات الأستاذ البندارى . و « أبو حلاَّه » ، هذا ، بطل الكتاب ، وهو محرف « أبى حلقة » ، وهى الكنية التى ورثها عن أحد أجداده ، وكان يلبس حلقة فى أذنه . يزعم بعض الناس ، أنه كان مشهوراً بالكرامات ، وأنه كان يطفىء الحريق إذا خاضه . ويسر صاحب الكتاب أن يستعيد ذكرى هذه الكنية ، وأن يتمسك بها ، لأن أسرته لا تزال تشتهر بها فى القرية ، لدى طبقات العامة من أهلها .

وعلى ذكر تعليم الكتابة أو الخط فى الكُتاب ، نقول : إن خط الولد كان مثل خط معلمه ، « ذُرّية بعضُها من بعض » كلاهما خطه كتابىٌ ، أى مثال الرداءة ؛ لأنه لم يكن على مشق أو نموذج ، وإنما كان خطا يمثل الحروف ، فقط ، أسوأ تمثيل .

لهذا وُجِد ، فى ذلك الوقت ، خارج الكتاب ، وفى المدن غالباً ، أناس خطاطون ، أو معلمون للخط وتحسينه ، كانوا ينقسمون إلى صنفين واضحين : أحدهما يُعَلّم خط الرقعة أو الخط الديوانى ، وكان الخط الدارج . ومن تخرج عليهم اشتغل بكتابة العرائض والرسائل ، أو العقود عقود البيع والإيجار ونحوها . وقد تبلغ به الثقافة الخاصة ، أو طلب العلم بالجامع مثلا ، إلى دراسة شىء من القوانين واللوائح تعده ليكون محامياً ، وأمثال هؤلاء فى عصرنا كانوا كثيراً ، كما تراه فى رسالة صديقنا الشيخ أحمد فايد ، قبّانى القرية ورئيس ناصحيها (خياطيها) ، فى الصفحة المقابلة .

أما الصنف الآخر فهو مَنْ يُعَلّم خط النسخ ، ومن تخرج عليهم كان يشتغل بتحرير الكتب ونسخها ، إذ كان العصر عصر رواج الكتب الخطية واستنساخها ، لأن المطابع لم تكن قد انتشرت ، ونسخت هذا النسخ .

كأنى بك بعد هذا كله ، تشعر بأن الولد ، بعد أن مكث فى الكتاب خمس سنوات أو ستاً ، خرج منه وهو يحفظ ما بين دفتى المصحف الشريف ، حفظاً ، لا يفقه لشىء منه معنى ، ولا يدرك له سراً ؛ وكذلك لا يعرف من مبادىء العلوم شيئاً ، لأن الفقيه ، كما تعلم ، نكرة مبهمة فى عالم العلم . فالولد فى داخل الكتاب لا يحصل على تنمية عقل ، أو إنضاج فكر ! !

من المحترم الاستاذ محمد سيد الجواد
بعد السلام نعرف حضرتكم اني تعلمت الخياطة بمدينة
طنطا على يد المرحوم الشيخ احمد الزيني وكان
كاتبا بوفاق سيدي احمد البدوي وبشغال بقصبة
وكان صنايعي المعلم المرحوم علي افندي سليم
الذي اشتغل محاميا بعد ذلك وافها
الشيخ احمد بدر وحسن افندي حسني والشيخ
محمد نواب المحاكم افهما وذلك حوالي
سنة ١٨٩٠ ولما كنت لي طلب علم مثل اخواني
المذكورين لكنت اشتغلت بالمحاماة مثلهم والي
الحمد لله على ما رزقني به حرفتي في الغيابة من
سنة ١٨٩٧ الى الآن مع كثير اهل البلد
وكل من عرفني وذلك لاني اخدم اخواني
بالذمة والامانة وبعد عن محاكم وطلبة
والسلام

(شكل ٣٨) خطاب لصديقنا الشيخ أحمد فايد
يحمد الله على بعده عن المحاكم وأهلها، ويقنع بحرفة القبانة فى قريته

غير أن الطفل ، فى هذا الوقت ، لم يَفُتْه أن يَنْدَسَّ بين الصفوف ، ليتعلم شيئاً غير كتابة القرآن وحفظه . وكانت الفرص تواتيه — إن طوعاً وإن كَرهاً — فيقوم بأعمال تعود عليه باتساع العقل ، والخبرة بالعمل وكثرة التجارب .

كان الأولاد يؤدون للفقيه خدمات كثيرة ، إذ يساعدون أهل بيته فى إعداد الطحين والخبيز وكنس المنزل ، كما كانوا يجلبون له الخضر والطبيخ من الحقول ، حقول آبائهم أو غير آبائهم ؛ فيطلبون باسم الفقيه شيئاً من الخضر المزروعة فى الحقل ، ثم يعودون بها ، فينظفونها ويقطعونها أو يخرطونها .

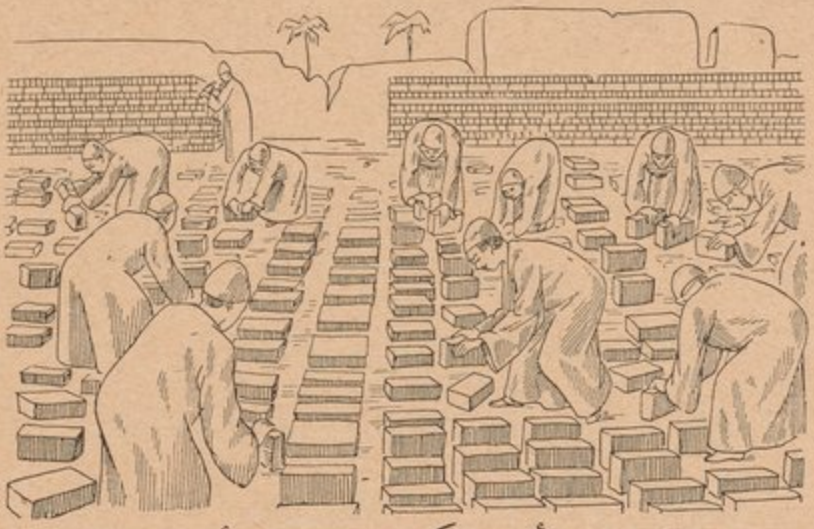

شكل (٣٩) أولاد الكتاب ينقلون اللبن أو يقلبونه

وكثيراً ما يأتى أهل القرية من جيران الفقيه ومعارفه إلى الكتاب ، يطلبون الأولاد للمساعدة فى تقليب اللبن (الطوب) عند ضربه ، وصفه أو نقله عند البناء ، وتقشير القصب المصرى (الغاب) الذى

تسقف به المنازل ، ونسج هذه السقف أو جَدْلها ، ورصف الأرض أو دكها ، ودَوْس الطعام أودَرْسه ؛ فيجاملهم الفقيه بإرسال الأولاد لأداء هذه الأعمال الصغيرة ، التى تستدعى تلك الأيدى الكثيرة .

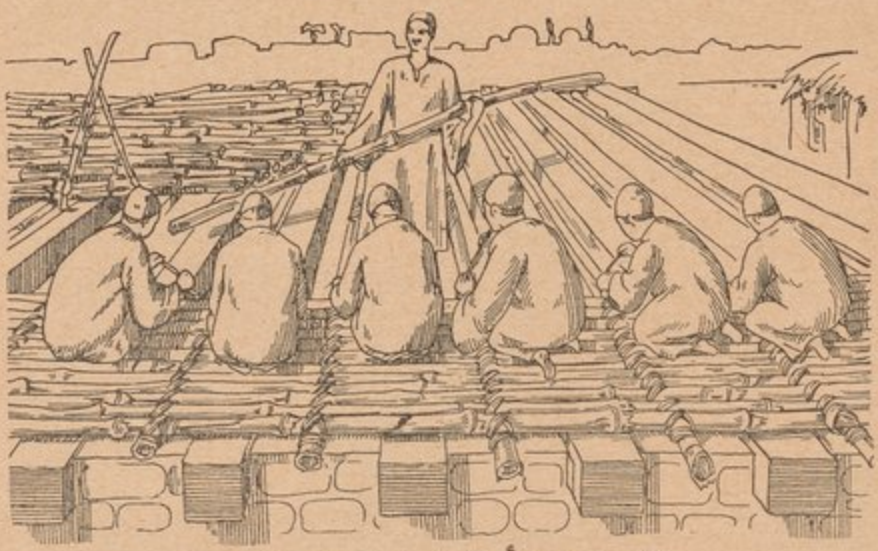

شكل (٤٠) الأولاد يجدلون سقف البيت

وكانت هذه الأعمال محبوبة لديهم ، إذ بها ينصرفون من الكتاب الذى يرون « الباستيل » دونه ، فيرتعون فى بحبوبة الحرية ، ويتمتعون بالنشاط الجسمانى ، ويزاولون أعمالا لهم فيها مُتْعة عقلية ومَسَرّة . وويل للبقية الباقية من الأولاد ، التى يحتفظ بها الفقيه فى الكتاب ، ضنًّا بيديها أن تتناول هذه الأعمال الخشنة لعزّتها عنده ، أو عملا بأمر من والد لا يود أن ينصرف ابنه عن الكتاب لعمل آخر مهما كان جليلا .

ولا يفوتنك أن تضيف إلى هذا أن كثيراً من الفقهاء والعرفاء كان يتعاطى بعض الصناعات ، كضفر الخوص لعمل الغـــرائر أو القفف

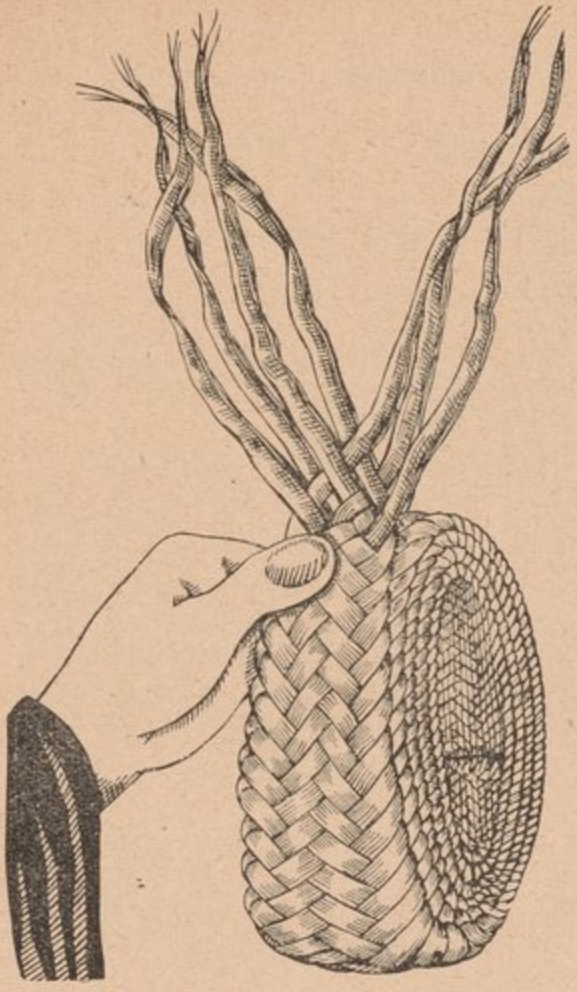

شكل (٤١) ضفيرة الخوص

والزبابيل والمقاطف ، ونخياطة الثياب، ونفش الصوف وغزله، ونسج السكبة أو الشُّبَيْكة .

وهذه كان يحذقها بعض الأولاد ، فيتعلمها كثير منهم عفواً أو قصداً . وقد سرت إلىَّ هذه العدوى ، على الرغم من تنبيه أبى وتشديده لانقطاعى لحفظ القرآن فقط ؛ فكانت تمتد يدى إلى جُلّ هذه الصناعات ، أجيد بعضها وأسىء استعمال بعض آخر؛ وكانت لىَ نماذج من المصنوعات هى مضرب الأمثال فى الحسن أو الرداءة ، مثل مقطف من الخوص أسأت صنعه ، وكيس نقود شبكته من الخيط الملون ، أو تطريز كيس «بالظرافة» ، أو قلنسوة لم أُحْكم قياسها .

شكل (٤٢) كيس الظرافة

وكانت هذه الصناعات ، فى ذلك الوقت ، تعتبر من الشواغل التى تصرف عن الدرس والتحصيل ، وتلهى الولد عن أداء عمله . ومما يذكر مع العجب أن مفتشى المعارف ، إبان الإصلاح الأخير ، فى فجر القرن العشرين كانوا يحاربون الفقهاء لصرفهم عن تعاطى هذه الصناعات ، وأخصها صفر الخوص ، لأنها كانت فى نظرهم ملهاة ومضيعة للوقت ، ولكن الوزارة عادت أخيراً فأقرت الأشغال اليدوية ، وأدخلتها فى المدارس على اختلاف ألوانها بعد أن كانت لا تعبأ بها قديماً ، بله أنها كانت تقاومها .

شكل (٤٣) كيس من الشبيكة

شكل (٤٤) الأولاد حول عريفين يشتغلون بالخوص

وعلى هذا الاعتبار ، ترى أن المواد الدراسية بالكتاب قليلة ، فى الظاهر أو بطبيعة العمل ، كثيرة فى الواقع ، لم تقتصر على القرآن الكريم

وحفظه ، وتعلم القراءة والكتابة ، بل تخطت ذلك إلى تعاطى بعض الأشغال اليدوية ، من ضفر خوص ، ونسج خيط ، أو تطريز ثوب أو خياطته . ولقد كان يتخرج فى الكتاب أحياناً من يحذق شيئاً من هذه الصناعات ، يحترف بها ويُؤجَرُ عليها .

ولن أختم هذا الفصل قبل أن أشير إلى مادة من أهم المواد المدرسية الآن ، وهى الرياضة البدنية :

« اتفق الناس فى ذلك الحين على أن الطفل الساكت الذى لا يتحدث ، والساكن الذى لا يتحرك ، هو الفتى المهذب ؛ أما اللاعب بالكرة ، والضارب بالعصا ، فليس بمؤدب . ولهذا كانت الرياضة البدنية ممنوعة بتاً فى أثناء الدراسة ، غير مرغوب فيها وقت الراحة ؛ فكان الأولاد يختلسون وقتها اختلاساً ، فيلعبون بكرة العصا وبكرة اليد وغيرهما من الألعاب ، عصر كل يوم ، بعد الانصراف من الكتاب ، أو بعد العَشاء قبيل النوم ، كما كانوا مولعين بالسباحة فى الترع والأنهار . وإذا جاء الفيضان حُرِّم على الأولاد الاستحمام فيها وطبع على أنخادهم بطابع من الحبر

شكل (٤٥) ختم النيل على الفخذ

يقال له (ختم النيل) ، يتخذه الفقيه غالباً من ظرف فنجان القهوة ، ويفتش عليه من وقت لآخر ؛ فإن ذهب أثره دل ذلك على أن هذا

الولد قد استحم ، فليقدم للعقاب حينئذ ، وتوقع عليه أقسى العقوبات .
وظاهر أن الغرض من الحجر فى هذا الوقت كان تخوف الغرق على الأولاد

وإن من أعجب العجب ، أن ترى « أبا حلأة » فى القرن العشرين يضع عمامته ، ويخلع جبته ، ويشمر قفطانه فى منطقته ، ويعقد ظَنابيبَه ليلعب الكرة وهو رجل شيخ ، ولا يسيغها له أبوه أو « سيدنا » فى القرن التاسع عشر ، وهو صبى طفل ، يحرك جسمَه فى كل لحظة ، ما يحـــرك الأطفالَ ، من سن النمو ورأس خال من رزانة الرجال[1] » .

شكل (٤٦) يباح لهذا الشيخ فى القرن العشرين مالا يباح له طفلا فى القرن التاسع عشر !

تلك هى خلاصة المواد الدراسية ، أو بعبارة أدق ، الينابيع العلمية أو العقلية ، التى كان يستقى منها عقل الطفل فى الكتاب ، فلنتجاوزها إلى طرق الدراسة فى الكتّاب .

---

(١) من عبارات الأستاذ البندارى

طرق الدراســـة

فى تعليم الهجاء ، وحفظ القرآن الكريم

مآل الأولاد فى الكُتاب، غالباً، أن يحفظوا القرآن الكريم مُنَجَّماً ، أى مقسما إلى أقسام ، تختلف طولا وقصراً ، وصعوبة وسهولة ، تبعاً لتقدم الولد فى السن ، وقوة حافظته ، وتبعاً لطول مدته فى الكتاب وقصرها . هذه الأقسام لا بد من كتابتها فى اللوح قبل حفظها ، إلا لمن كان كفيف البصر . هؤلاء يحفظون ألواحهم أو دروسهم تلقيناً من الفقيه أو العريف ، أو من زميل مبصر يسايرونه ، وينتقلون معه خطوة خطوة ، لوحاً لوحاً .

لكن الولد الحديث فى الكتاب لمَّا يتعلم الكتابة والقراءة ، فماذا يعمل فيه ، حين تطأ قدماه هذا الحرم الأقدس ؟ ! إنه يمكث أياماً يؤلَّف فيها قلبُه ، وما أقصر هذه الأيام ! وقد يُعْتَبر فى الكتاب ضيفاً ، ولكن ما أسرع ذهاب أيام الضيافة فى بيوت هؤلاء الفقهاء ! يجلس هذا الطفل وسط الأولاد ، فيسمع من هذا حرفاً ، ومن ذاك كلمة ، ومن غيرهما آية .

حتى إذا ما عاد إلى بيته ، أخذ يردّد هذه الأحرف والكلمات والآيات فتقع فى أذن والديه كأنها نغمات موسيقية ، يطربان لسماعها ، وقد يتعمدان الإنصات لولدهما وهو يردد ألفاظ : أليف — بيه — تيه (بالامالة فيها) ، أو إزا جاء ، نصُر الله ، والفتحو ، بدون أن يعلم من أمرها شيئاً ، إلاّ أنه التقطها من الولد الذى سبقه إلى الكتاب بشهر واحد أو نحوه .

وبعد أن يمكث فى الكتاب أسبوعاً أو أكثر، وبعد أن يعتاد التوجه إلى الكتاب مع الغادين إليه، وينصرف منه مع الرائحين، يكون الفقيه قد رتبه مع ولد يقرئه بعض قصار السور، مبتدئاً بفاتحة الكتاب، ثم سورة الناس، والفلق، والإخلاص الخ — يقضى فى حفظ كل سورة، تلقيناً، ما شاء الله أن يقضى. وفى كل يوم يسأله أبوه ليلاً: هل حفظت الفاتحة؟ أو يقول له: سمّعنا الحمدو، الخ.

لا يلبث الفقيه إلا قليلاً، حتى يخلع عليه لوحاً قديماً تركه بعض أغنياء الأولاد، أو يطلب إليه أن يحضر غداً ثمن لوح جديد، أو أن يكلف والده شراء هذا اللوح، إذا كان الوالد ممن لهم دراية بهذا.

وهنا تبتدىء دروس التهجى، يقطعها الولد مراحل، بجانب حفظ قصار السور، عن طريق التلقين كما رأيت.

كنت أريد أن أتحاشى الخوض فى طريقة تعليم التهجى بالكُتاب، إلى بحث أجمع فيه بين القديم والحديث من طرائقه، ولكنى رأيت لزاماً علىّ ألا أغفل هذا الجزء الأساسى من تاريخ الكتاب، إتماماً للموضوع. فاستمع لما أسرده عليك من ذلك:

(١) المرحلة الأولى: حفظ أسماء الحروف الهجائية:

ا ب ت ث

كان على العريف، أو من يقوم مقامه من كبار الأولاد، أن يجمع المبتدئين، فيجلسهم أمامه فى صف أو قوس، ثم يتناول لوح كل منهم،

ويخط فيه ثلاثة أحرف أو أربعة ، بخطه الكُتَّابى ، كما رأيت ، ثم يأخذ فى تلقينهم أسماء هذه الحروف على النحو الآتى :

أ ب ت ث

أليف — بيه — تيه — سيه (بالإمالة فى الجميع وبدون

ج ح

إخراج اللسان فى الأخير) — جيم (بدون تعطيش) — حاه —

خ د ذ ر ز

خاه — دال — زال (بدون إخراج اللسان) — ريه — زين

س ش ص ض ط

(بالامالة فيهما) سين — شين — صاض — ضاض — طاه —

ظ ع غ ف

ظاه (بدون إخراج اللسان) — عين — غين — فيه (بالامالة

ق ك ل م ن ه

فيهما) قاف — كاف — لام — ميم — نون — هيه —

و لا

(بالامالة) واو — لَمَلِفْ (يراد لام ألف مع تسهيل الهمزة) —

ى

ييه (بالامالة) .

يتلو العريف أسماء الحروف الثلاثة أو الأربعة ، ويأمرهم بترديدها بأصوات مرتفعة ، تعلو سائر الأصوات فى الكتاب ، فكأنك لا تسمع فيه إلا : أليف — بيه — تيه الخ .

ذلك لأن سائر الأولاد ، فى ذلك الوقت ، مشغولون بكتابة ألواحهم نقلا من المصحف الشريف ، وهؤلاء الأولاد الحديثون مسرورون

من نغمات أسماء هذه الحروف ، فيطيلون فى الإمالة ، يسابق بعضهم بعضاً فى ذلك وفى رفع الصوت . يفعلون ذلك ، وهم لا يميزون بين حرف وحرف ، ولا تُذكر لهم تفاصيل أجزاء الحروف ، ولا الفروق التى بينها . وكل ما هنالك أنه ، إذا كان العريف دقيقاً فى عمله ، يأمرهم بمتابعة النطق فى كل حرف ، فيكلف كل ولد أن يشير بخنصره ، مبتدئاً من الحرف الأول إلى الحرف الأخير ، مع التلقين منه ، والنطق منهم .

على كل ولد فى الكتاب ، أن يحفظ كل يوم لوحاً قديماً ، ويكتب لوحاً جديداً ؛ ولكن هل هؤلاء الأولاد المبتدئون يدخلون فى عداد من يعمل بهذا القانون ؟ اللهم لا ! فإن قانونَ الكتاب — بالنسبة لهم — مرن ، وثوبَ الواجب — كما يقول صديقنا — فضفاض . لا بأس عليهم أن يُبيّتوا اللوح ، أى أن يحفظوه فى اليوم التالى أو الذى بعده . وعلى الرغم من نشاط حافظة الأولاد فى هذه السن ، وأنها كثيراً وسرعان ما تلتقط بعض آيات ممن بجوارهم ، فإنها إزاء التكليف والتضييق والتحديد ، تأبى أن تأتى على أربع كلمات ، هى أسماء هذه الحروف الأربعة المكتوبة فى اللوح . فيستعيد العريف اللوح فى اليوم الثانى والثالث وهكذا حتى يحفظه الأولاد . قد يسبق بعضهم فى الحفظ ، وقد يتأخر آخرون ؛ فإن تكوّن من هذه الفرقة الجديدة زُمَرٌ متعادلة ، تفرع عنها طوائف يسبق بعضها بعضاً ، فيسير المسرعون الأذكياء أو الحافظون ، وليتخلف المتأخرون حتى يحفظوا ؛ ولينضم إليهم من الأولاد من جاء متأخراً ، وسيل الوفود إلى الكتاب لا ينقطع كل يوم أو أسبوع أو شهر .

يبقى الأولاد فى هذه المرحلة شهراً أو شهرين أو أكثر حتى يحفظوا

عن ظهر القلب — فقط — أسماء الحروف الهجائية على نحو ما رأيت ، فلا يكلفون تمييز الحروف بعضها عن بعض ، ولا يفرق الواحد منهم بين حرف وآخر ، بل كل ما عليهم تلاوة أسمائها بترتيبها من أولها إلى آخرها ويستعاد الماضى أو السابق مع الجديد . وإذا ما أتموا ذلك انتقلوا إلى :

(٢) المرحلة الثانية : وهى بيان المعجم أى المنقوط من الحروف والمهمل منها .

على العريف فى هذه المرحلة أيضاً ، أن يكتب لكل ولد فى لوحه ثلاثة أو أربعة أحرف ، ثم يجلسهم أمامه ويلقنهم كذلك ما يريد ، مبتدئاً :

أ	أليف (بالإمالة) لا شَيْن عليها ، يريد لا شىء عليها ، أى ليست منقوطة .
ب	البيه (بالإمالة) ، واحده من تحتيها ، أى تحتها نقطة .
ت	التيه (بالإمالة) اتنين من فُوقها أى فوقها نقطتان
ث	السيه تلاته من فوقها ، أى فوقها ثلاث نقط . وهكذا
إلى ى	اليه اتنين من تحتيها أى تحتها نقطتان .

يستمر الأولاد فى ترديد هذه العبارات حتى يحفظوها عن ظهر القلب ، كما كان فى المرحلة الأولى ، ويقضون فيها شهراً أو شهرين أو أكثر . ولا تعجب من هذا ، محتجاً بأن الولد قد مرن على الحفظ ، واعتاد ترداد هذه الأصوات ، فإن المرحلة الثانية تزيد صعوبة عن المرحلة الأولى ! ذلك لأن الولد فى المرحلة الأولى كان يكلف مثلاً حفظ لفظ (أليف) فقط ، ولكنه هنا يحفظ (أليف لا شين عليها) ، وهو لا يعرف أو لا يستطيع أن يُدرك معنى عبارات : لا شين عليها ، واحدة من تحتيها ،

واتنين من فوهها ، وتلاته من فوهها الخ فإذا خانته ذاكرته فقد يضع واحدة بدل أخرى ، وتلك هى الطامة الكبرى فى نظر كل من العريف والولد ، لما يترتب على ذلك من عقابه !

قضى الولد هاتين المرحلتين قارئاً — بطريق التلقين — فقط ، لا كاتباً ؛ ولا بد للفقيه بعد أن مكث الولد فى كتابه شهوراً — أن يعطيه بعض دروس فى الكتابة ، وتلك هى المرحلة الثالثة .

أ ح ي ف ن ا

(٣) المرحلة الثالثة : تعليم الكتابة بالنقط .

قضى الولد فى الكتاب زمناً وهو لا يعرف أن يخط خطاً أو يكتب حرفاً . يبدأ العريف فى أن يضع له الحروف نقطاً متراصة ، وعلى الولد بعدئذ أن يصل بين هذه النقط أو يجُرَّ عليها القلم ، لتصير خطاً يكوّن حرفاً . وهكذا يكتب الولد كل يوم لوحاً ، حتى يتم كتابة الحروف كلها . وهو فى كل يوم يختبر فيما حفظه فى المرحلتين السابقتين . وعليه بعد أن استراح من حفظ ألواح جديدة مدة طويلة ، أن ينتقل إلى مرحلة أشق من المراحل السابقة ، تلك هى الحروف ممدودة .

با بى جر بُ ا ب

(٤) المرحلة الرابعة : وعنوانها : أَلِفْ آليفْ (بالإمالة) لامْ فِيهْ (بالإمالة) . وتفسير هذا العنوان هو تهجى منطوق حرف « ا » أى أن لفظ أَلِفْ يتكون من ثلاثة أحرف هى ، أليف (بالامالة) أى ألف ، ولام ، وفِيهْ (بالامالة) أى فاء ، أى أن لفظ ألف يُتهجى : ألِف ، لام ،

فاء ، وعلى الولد أن ينطقها هكذا : ألف آليف لامفيه .

ثم تأتى بعد ذلك جميع الحروف مع اتباعها بحرف مد أو سكون ، على هذا النحو :

(با) وتُلفظ بَابَالِيفْ (بالإمالة) أى با تتكون من باء وألف

(بى) وتُلفظ بِيبَايِيهْ (بالإمالة) أى بى تتكون من باء وياء

(بو) بُو بَاوَاوْ أى بو هجاؤها باء وواو .

(به) بَهْبَهْ هِيهْ (بالإمالة) أى بَهْ هجاؤها باء وهاء

(ابْ) آلِف بِيه أى أن ابْ ألف وباء أى أن الباء الساكنة تتكون من ألف (يراد همزة الوصل) وباء ساكنة .

وهكذا : (تا) تَاتَالِيفْ (تى) تِيتَايِيهْ (تو) توتَاوَاوْ (ته) تَهْتَهْ هيه (اتْ) آلِف تِيهْ . إلى آخر الحروف (يا) يا ياليف (يى) يِيَايِيه (يو) يو ياوَاوْ (يه) يَهْيَهْ هيه (ايْ) آلِفْ يِيهْ .

لا تنس أن الولد يحفظ لوحه هنا بكل بطء لصعوبة ألفاظه ، وبدون تعقل لما يقرأ ، وأن اللوح فى هذه المرحلة لا يحتوى إلا حرفاً واحداً فقط ، فتكون أطول من المراحل السابقة . يقول صديقنا : « سئم الولد هذه الألفاظ ، كما سئم ما قبلها ، وكما سيسأم ما تلده الأيام من أخواتها الحروف المتحركة ، حيث المعانى مغلقة ، وطرق التعليم مملة » . ولكن لا بد له من سلوك الطريق إلى آخرها ؛ فكما حفظ الحروف ممدودة ، فليحفظها أيضاً بحركاتها ، وتلك هى المرحلة الخامسة :

(٥) قد يتبع الفقيه أو العريف فى طرقه قواعد التربية ، بدون علم منه ، وإن طغى على كثير منها ، فهو لذلك يعلّم الحروف المتحركة على أشواط ، نختصرها فيما يلى :

الشوط الأول : الحركة الواحدة ، هكذا

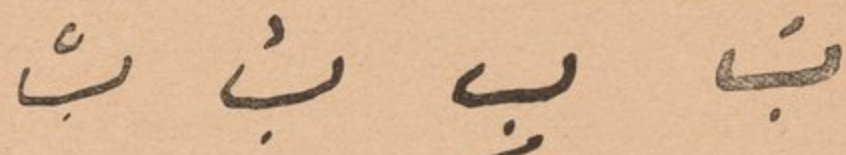

(بَ) بيهْ (بالإمالة) نَصْبهْ با (بِ) بيه خِفْضَه بى (بُ) بيه رُفْعَه بو (بْ) بيه جزمه اَبْ إلى آخر الحروف | ىْ | بيه جَزْمَه اَىْ

الشوط الثانى : الحركتان ، هكذا

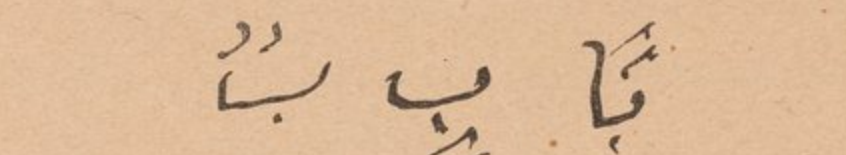

| بًا | بَنْ نَصْبتين | بٍ | بِنْ خِفْضتين | بٌ | رُفعتين إلى آخر الحروف | ىٌ | بُنْ رُفْعتين .

الشوط الثالث : الحركة مع الشدة ، هكذا :

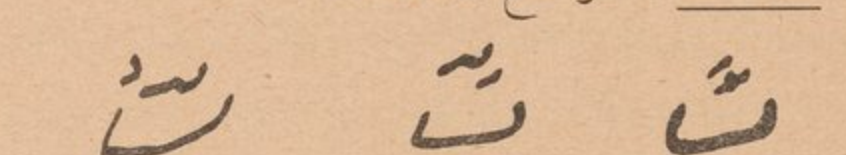

| بَّ | أبًا شَدَّه ونَصْبَه ابَّ | بٍّ | إبِّى شَدَّه وخِفْضَه ابٍّ | بٌّ | أبُّو شَدَّه ورُفْعَه أبٌّ إلى | ىٌّ | أىٌّ شده ورُفعه أيُّو .

الشوط الرابع : الحركتان مع الشدة هكذا :

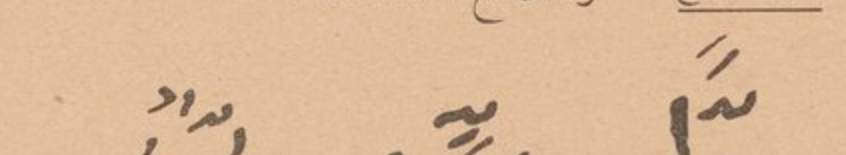

[بًا] أبَنْ شدة ونصبتين [بٍ] أبِنْ شدة وخفضتين [بٌ] ابُنْ شدة ورفعتين إلى [ىٌ] إبُنْ شدة ورفعتين .

بذلك تنتهى هذه المرحلة بعد أربعة أشواط ، فيها يكتب الولد ، أو إن أردت الدقة فقل ، يُكْتَب للولد كل يوم حرف واحد ؛ وتصور ما شئت عدد الأيام والأسابيع أو الأشهر التى يقضيها الولد فى هذه المرحلة مضافاً إلى ما سبقها من المراحل .

بعد قطع المراحل السابقة كلها فى حفظ الحروف وحركاتها ، ينتقل الولد فى التهجى إلى المرحلة الأخيرة منها ، وهى كتابة كلمات وتهجيها :

أبجد هوز حطى

(٦) ما هذه الكلمات التى تختار للكتابة والتهجى ؟ تلك هى الحروف الهجائية كلها ، مجموعة فى الكلمات الأبجدية المعروفة : اَبْجَدْ هوَّزْ حُطّى كَلَمُنْ سَعَفَصْ قَرَشَتْ ثَخَذْ ضَظَغْ .

لا تتصور مقدار الصعوبة التى يعانيها الولد فى هذه المرحلة ، فقد نسى بجانبها الصعوبات التى تخطاها فى سابق المراحل ؛ فعليه أن يعرف مِمَّ تتكون كل كلمة ، وعليه أن يعرف الحركات ، فكأنها تطبيق على الدروس السابقة.

وليس يعنينا من هذا كله ، إلا أنك تعلم أن الولد قد بدأ يتهجى بعض الكلمات السهلة ، وأسماء الأشخاص خاصة . فإذا سئل مثلاً كيف تتهجى «محمد» قال : ميم حاه ميم دال ، أو «احمد» قال : ألف حاه ميم دال الخ

بعد هذ العمل الشاق كله ، وبعد الزمن الطويل الذى قضاه فيه الولد ، عاماً أو عامين أو أكثر ، أصبح من الميسور له أن ينقل حرفياً بعض آيات ، يكتبها له العريف فيحاكيها ويقرؤها ، مع المحاكاة أيضاً ، ثم هو بعد قليل —وقد كبرت سنه— يستطيع أن يضع المصحف على فخذه ينقل فيه لوحه ، وقد

شكل (٤٧) الولد ينقل اللوح من المصحف

أتم حفظ كثير من قصار السور ، فهو يكتب مثلا أول سورة المطففين أو سورة التكوير . وبذا قد دخل فى عداد الأولاد المستقلين ، فانقطع عن القراءة بالتلقين ، إلى القراءة والحفظ ، عن النقل من المصحف . أضحى الولد قادراً على الكتابة والقراءة ، قراءة الحروف المشكولة بخط النسخ مثل المصحف ، ولكنه لا يستطيع أن يقرأ خطاباً أو نحوه مما يكتب بخط الرقعة مثلاً ، كما أن خطّه كتّابى ، حروف مقوسة متكسرة ، وسطور متعرجة ، يعجبنى فى وصفها ذلك التشبيه الصادق ، الذى وضعه والدى رحمه الله لِخَطّى ، حيث قال صادقاً : كسلاسل الزفت !

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الهجاء العربى تأثر بالهجاء السريانى كثيراً ، حتى فى تحريف أسماء الحروف .

وبعدُ ، فلنذكر كيف يحفظ الولد القرآن الكريم حينئذ .

تراه يكتب لوحه أو فى لوحه آية أو آيتين ، يرقى بعدها فى زيادة المقدار إلى خمس آيات أو ست ، كلما تقدم فى العمر والحفظ ؛ وهو كما ذكرنا ، يتدرج من قصار السور إلى طوالها . وعليه فى هذه الخطوة أن يستذكر قليلا مما مضى حفظه ، ويعرف هذا « بالماضى » . قد يكون الماضى الآن جزءًا واحداً أو جزأين من القرآن المقسم إلى ثلاثين جزءً[1] . هذا الماضى لا بد من قراءته يومياً لتثبيته ، وهو يتدرج فى الزيادة مع تقدم الولد ، حتى يتم رُبْع « الخَتْمة » أو رُبْع القرآن أو ثلثه . فإذا وصل إلى سورة يس مثلا ، كانت مرحلة جديدة يقف الولد فى أولها قليلا ، ليستأنف الحفظ بلوح أطول ، تاركا الماضى القديم ، إلى ماض جديد يطول أكثر مما كان قبل يس ، فيصير ثلاثة أجزاء أو أربعة ، حتى يصل إلى نصف القرآن أو قبله بقليل .

وصل الولد الآن إلى سورة طه ، أو سورة الكهف ، وقد قضى فى الكتّاب أربع سنوات أو خمساً أو ستاً ، قطع فيها نصف القرآن حفظاً أولياً أو « تكسيرًا » ، كان يترك « الماضى » القديم فيه إلى « ماض » جديد ، وكان صغيرًا فتقدمت به السن . يرى الفقيه أن حفظ النصف التحتانى من القرآن الكريم كان تدريباً للحافظة فقط ، وليس المراد منه أن يتمسك الولد بجميع ما حفظ ، بل عليه أن يحفظ ويتناسى ، أو يحفظ وينسى ، حتى يصل إلى هذا المحط من القرآن الكريم ، وهو نصفه .

فى هذا المحط يجد سيدُنا خيرَ فرصة لاستدرار بِرّ الوالد وخيره ،

---

(١) كلمة الجزء هنا اصطلاحية وهو جزء من القرآن كله . وينقسم الجزء إلى ثمانية أقسام كل منها يسمى ربعا ، وهو ربع الحزب ؛ والحزب نصف الجزء .

فيطلب « صرافة » النصف ، وتحمل إليه الهدايا والمكافآت ، على قدر يسار أهل الولد وغناهم ؛ فإذا تم له ذلك نقل الولد إلى النصف الثانى . فليبدأ الولد بعدُ لوحاً طويلا ، يكون نصف « الرُّبع » بعد أن كان ثلثه أو رُبْعه . وكلما حفظ الولد الآن جزءًا من القرآن تمسك بحفظه ، حتى يتم النصف الفوقانى إلى سورة البقرة ، فيكون ماضيه أربعة عشر جزءًا ، يستعيد بعضها يومياً ، ويقرؤه للتثبيت باستمرار . فإذا ختم سورة البقرة ، كان « الختام الصغير » . يحتفل له سيدنا ، انتظاراً للأجر والمكافأة ، ويعفى الولد من كتابة اللوح مدة يشتغل فيها بتثبيت ماضيه الطويل وإتقانه ؛ حتى إذا كوفئ الفقيه وقبض « الختام الصغير » ، وتأكد من إجادة الولد حفظ ماضيه أو النصف الفوقانى ، أو الأول من القرآن الكريم — أمره بكتابة اللوح فى النصف التحتانى ، أو الثانى ، مبتدئاً الآن من سورة الكهف أو الأنبياء حتى يصل إلى سورة الناس ، التى بدأ بحفظها طفلاً بعد الفاتحة .

هذا النصف يسهل حفظه على الولد ، لأنه كان قد حفظه وتركه ، فهو لذلك يكتب اللوح أطول من النصف السابق ، فيكون ثلثى « الرُّبع » أو « الرُّبع » كاملاً إذا كان صغيرًا . وهو لهذا يسرع فى حفظ هذا النصف لأنه استعادة واستذكار فقط ؛ ولكن الولد يصادف فى هذه المرحلة مشقة عظيمة فى « تثبيت الماضى » ، لأنه يتحتم عليه أن يُسمع من الماضى كل يوم حزباً أو جزءًا ، غير ما يجب عليه تلاوته مرة واحدة .

وهو إذا ما انتهى من حفظ هذا النصف الثانى أو استعادة حفظه ، كان « الختام الكبير » أى تمام حفظ المصحف الشريف أو القرآن الكريم

كله . فليطلب الفقيه الآن دينارًا كاملاً (جنيهاً) ، وليطلب الكسوة ، وليطلب ما شاء من خبز فطير ، وسمن ولبن ، وجبن وعسل ! وعلى الوالد بعد أداء هذا كله أن يتفق مع سيدنا على ختمة « تجويد » أو قراءة برواية غير حفص أو « بالسبعة » إذا كان الولد حسن الصوت ؛ ويكون الأجر فى هذه الأحوال مقدرًا محدوداً . وقد يكتفى الوالد بما وصل إليه ابنه من مجرد حفظ القرآن الكريم ، ولا ينتظر إلا نتيجة اختباره أمام مجلس القرعة العسكرية لإعفائه من الجندية ، بل قد يُعَلَّقُ أجرُ الفقيه على نجاح الشاب فى هذا الامتحان ، فيبذل معه سيدنا مجهوداً يستحق عليه الأجر والثناء ، بعد معافاة الولد .

أما إذا كانت رغبة الوالد متجهة إلى إرسال ابنه إلى المعهد الدينى ، فإن الفقيه كفيل بأن يرشد الولد إلى بعض متون العلوم المعروفة ، يحفظها فى بقية السنة ، بعد ختمة التجويد ، ومع تثبيت القرآن كله ، حتى يبتدئ العام الدراسى للمعاهد الدينية ؛ فيُوَدِّع الولدُ سيدَنا وامرأتَه ، متجهاً إلى المعهد . ولا يفوت الوالدَ والولدَ فى السنتين الأوليين من دراسته بالمعهد ، أن يأتى إلى الكتاب فى إجازاته وعطلته ، ليرى نفسه بعد أن صار « شيخاً » مع رفقائه فى الكتاب ، وليستمر فى حفظ بعض المتون ، أو ليسمع خَتْمَة ، أو ليعيد تثبيت القرآن الكريم ، وليتصل بالفقيه دائماً ، إلى أن يتقدم فى الدراسة والتحصيل ، فتكون زيارته بعدئذ لماما ، للفقيه وأسرته ، والكتاب ودولته .

وإذا « فتح الله » على الولد ، استمرت صِلَتُه بالفقيه وأسرته ، ودَرَّت عليهم صِلَاتُه ، فى المناسبات العلمية ، وفى الإجازات وأوقات الرخاء .

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى الموطن الخشن

أوقات الدراسة

الحياة فى الكتّاب تكاد تكون فطرية ، والطبيعة فيه هى المعلم الأول ، فليس بدعاً أن تُحدَّ الأوقاتُ فيه بعلامات طبيعية . فشروق الشمس يعتبر مبدأ اليوم المدرسى ، صيفاً وشتاء ، سواء أكانت الساعة الخامسة صباحاً أم الساعة السابعة ؛ وأذان العصر نهايته ، سواء أكان فى الثلث الأخير من الساعة الثالثة بعد الظهر ، أم الساعة الرابعة . لذلك يطول اليوم المدرسى أو يقصر ، تبعاً لشروق الشمس وأذان العصر .

ويقسم هذا اليومَ فسحةُ الظهر أو الغَدَاء ، قسمة عادلة أو غير عادلة ، بل قد يُعجِّل بها بعضُ الحوادث فى القرية ، كموت غنى يشتغل الفقيه بالقراءة فى مأتمه ، أو زيارة ضيوف للقرية ممن اعتادوا ارتيادها ، كبعض مشايخ الطرق ، أو أبناء الصالحين ، ممن يعرفونهم بالأولياء . وقد يحصل ذلك أيضاً فى بعض أيام المواسم ، التى تمتاز لدى القرويين بالتوسعة ، أو كثرة الطعام والاكل .

وإياك أن تفهم من عنوان « أوقات الدراسة » مايتبادر إلى الذهن ، من أن هناك حصة أولى مقدارها كذا دقيقة ، وحصة ثانية وهكذا ! ! لا ! بل هناك أعمال خاصة فى الصباح ، وأخرى بعد الظهر ، يتكيف الوقت بحسبها ، أو تتكيف هى بحسب الوقت ، على مدار السنة . والواقع ، أن نظام التوقيت فى الكُتّاب ، وإن كان موسمياً يتأثر بالفصول ، إلا أنه ثابت على مدى الزمان .

أليس مقياس الوقت هو أن تطل الشمس من مسقط النور فى الكُتّاب ، فتزداد رقعتها على الأرض رويداً رويداً ، ثم تنحرف إلى الحائط ،

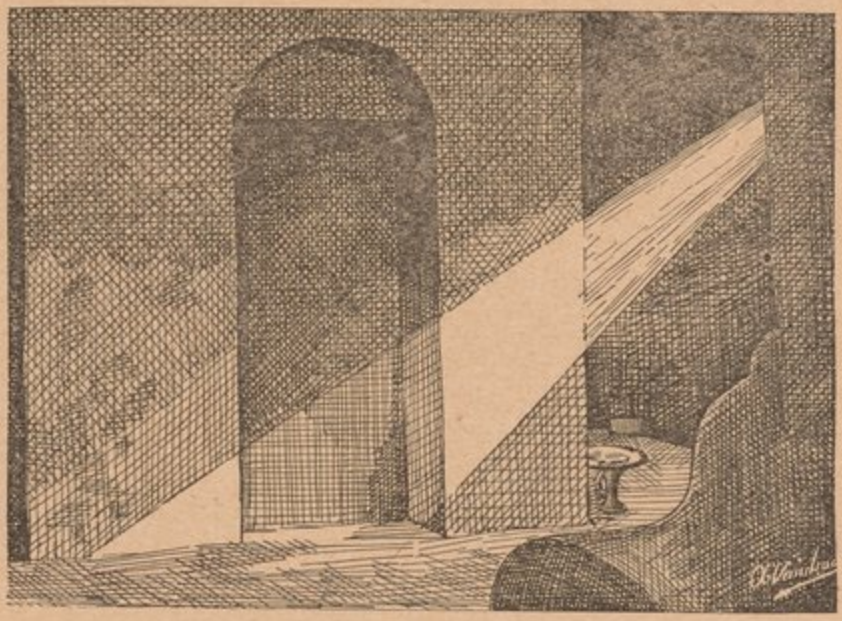

(شكل ٤٨) أشعة الشمس

وهى ساعة الكتاب ، تبين الوقت ، وتعين الدرس ، وتوضح فصول السنة

فيتسع شريطها ثم يضيق ، ثم تختفى عن الأبصار ؟ ! كل ذلك والأولاد لها بالمرصاد ، يرتاح بعضهم لتنقلها فى أبراج السعد ، فى نظره ، لأنه أدى ما عليه ، ويضطرب آخرون لتخلفهم عن القافلة ! فاذا « نقطَت الشمسُ » نادى الفقيه : حفظت لوحك يا حَمَّاد ! كتبت اللوح يا أبا صوف ! أو يستدعى حَمُّودةَ أمامه ليرى سبب بطئه عن الحفظ للآن ، ويكون نَصيبُه ما يُصيبُه ! وإذا ما عَلَت الشمس على الجدار ، وصار عرضها شبراً أو شبرين فى الصيف ، وأُنملة أو أُنملتين فى الشتاء ، فقد أزف وقتُ تصفية الحساب ؛ والويل لمن تأخر عن الرفاق فى أداء ما عليه من حفظ أو كتابة لوح ! إذ يَمْثُل أمام الفقيه ويحاسَبُ حساباً عسيراً ، لأنه تخطى النهاية العظمى فى الوقت ، للأعمال المقررة ، فى أوقاتها المقدرة !

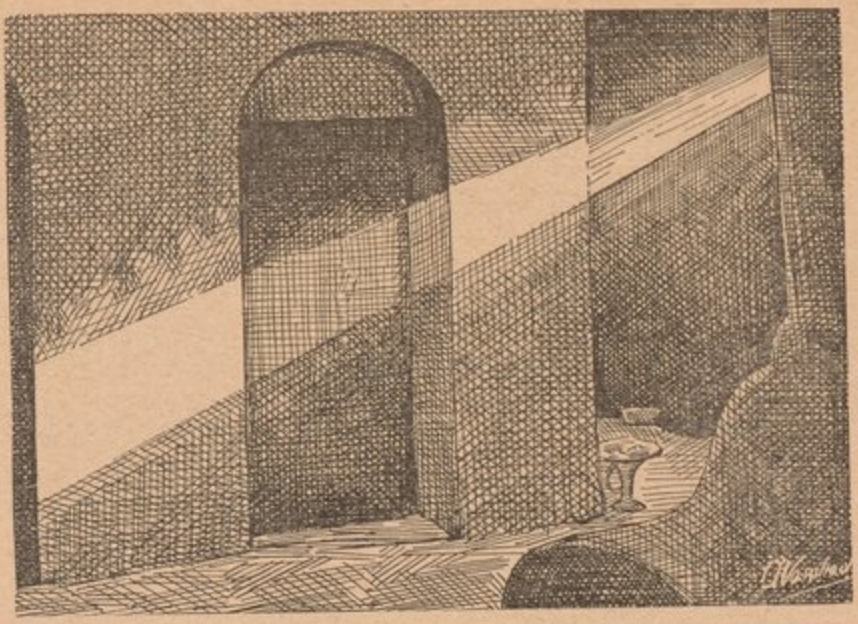

(شكل ٤٩) وجه الساعة فى فصل آخر
كم الساعة فيها الآن ؟ وفى أى حصة ؟ ألفصل شتاء أم صيف ؟
يجيبك عن هذا كله أولاد الكتاب !

تلك العلامات يقرؤها الأولاد ، ويجيدون قراءتها أكثر مما يجيدون قراءة ألواحهم ، عند تصحيحها ، أمام الفقيه أو العريف ؛ وهم يميزونها فى كل فصل من فصول السنة ، ويعينون بها أوقات الدراسة ، تعييناً لا يحتمل الخطأ ، ولا يعتريه الخلل ! والفقيه يتتبعها ويسأل عنها ، إذا لم يكن مبصراً .

نعم ، هو مضطر إلى أن يقيس الزمن برقعة الشمس على الأرض أو على الجدار ، قبيل الظهر ، ثم هو مضطر كذلك إلى أن يقيسه عصراً بظِلّ الإنسان على الأرض ، تبعاً للقاعدة المعروفة قديماً ؛ بحيث يقف الولد فى الشمس ، فى بقعة مستوية من الأرض ، كأنه مشير مِزْولة أرضية ، ثم يقيس ظِله بِقَدَمِه ، ليعرف الوقت الذى يحل فيه أذان العصر . وقد اعتادوا ذلك فى المسجد ، حيث تطل الشمس من مَنْور أو نافذة قبلية

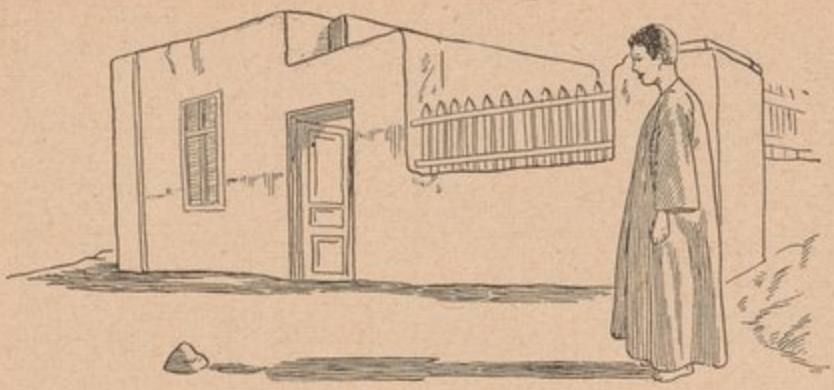

(شكل ٥٠) يمثل قياس الظل أمام مكتب الإعانة أو المدرسة بعد مضى ثلاثين سنة هناك، لأن أرضه مستوية لا يتكسر عليها الظل فيكون القياس غير مضبوط.

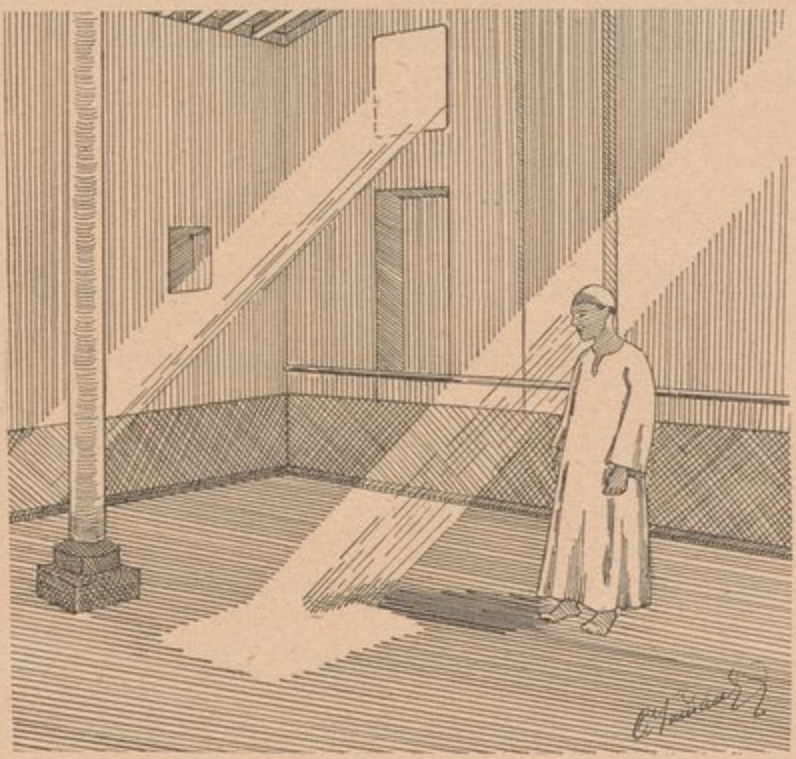

(شكل ٥١) يقيس الظل فى المسجد

لا تعجب ! نحن فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى ، وليس فى قريتنا — وسكانها لا يعدون ألفى نسمة — من يحمل الساعات

المعدنية التى تبين الساعات الزمنية ، إلا واحد أو اثنان ، أحدهما العمدة الجديد ، والآخر ابن العمدة المتوفى رحمه الله . لهذا لم يقتصر قياس الزمن بالظل على الكتّاب وأهله ، بل كانت معرفة أوقات الصلاة وصلاة العصر خاصة ، لدى القرويين ، بقياس الظل؛ فإذا مال الظل على الحيطان فقد حل الظهر ، وإذا صار الظل كذا قدماً فقد وجبت صلاة العصر[1] . أما أوقات الفجر والغروب والعِشاء ، فعلاماتها واضحة جلية .

---

(١) تحدد كتُب الفقه فى الشريعة الإسلامية ، أول وقت العصر ، بأنه « الوقت الذى يصير فيه ظل كل شىء مثله بعد ظل الزوال » . ومعروف أن قامة كل شخص سبعة أقدام بقدمه ، أو أربعة أذرع بذراعه .

ويختلف ظل الزوال على مدار السنة ، بنظام خاص ، وضع بعضهم رمزاً لطوله بالأقدام ، فى كل شهر من أشهر السنة المصرية أو القبطية ، ابتداء من شهر طوبه ، وجمعه فى الحروف الأبجدية محسوبة بالجمل فى عبارة « طزهجبا ابدوحى » أى أن وقت العصر يبتدئ متى صار ظل الإنسان ١٦ قدما فى طوبة ، و ١٤ فى أمشير ، ١٢ فى برمهات ، ١٠ فى برموده ، ٩ فى بشنس ، ٨ فى بئونة وأبيب ، ٩ فى مسرى ، ١١ فى توت ، ١٣ فى بابه ، ١٥ فى هاتور ، ١٧ فى كيهك ، كما ترى تفصيله فى الجدول التالى :

الحروف وجملها		عدد الاقدام التى تدل على الوقت			أسماء الشهور
الحرف	رقم الجمل	ظل الزوال	طول القامة	مجموع الاقدام	
ط	٩	٩	٧	١٦	طوبه
ز	٧	٧	٧	١٤	أمشير
ه	٥	٥	٧	١٢	برمهات
ج	٣	٣	٧	١٠	برموده
ب	٢	٢	٧	٩	بشنس
ا	١	١	٧	٨	بئونه
ا	١	١	٧	٨	ابيب
ب	٢	٢	٧	٩	مسرى
د	٤	٤	٧	١١	توت
و	٦	٦	٧	١٣	بابه
ح	٨	٨	٧	١٥	هاتور
ى	١٠	١٠	٧	١٧	كيهك

حقاً إن اليوم المدرسى فى الكتاب محدود بعلامات لا تقبل التزوير أو التحريف ، وليس فى استطاعة الأولاد تقديمها أو تأخيرها . وهى واضحة جلية لديهم ، اللهم إلا فى يوم مغيم أو ممطر ، فإن النظام قد يعتريه شىء من الإبهام ، فتكثر الأعذار عن التأخير ، وقد يضطرب العمل قليلا ، ولكن الواجبات تؤدى على الوجه الأكمل . على أن الفقيه لا يفوته قياس الزمن أحياناً بعمل بعض الأولاد ، من حفظ أو تسميع .

وجدول الدراسة فى الكتاب على هذا الاعتبار غاية فى الدقة ، على الرغم مما توهمته مخالفاً لذلك .

فإذا بزغت الشمس ، هرع الأولاد إلى الكتاب مسرعين فى طريقهم خوفاً من التأخير ؛ حتى إذا وصلوا إليه أخذ كل منهم فى استظهار لوحه ، أو تكرار الجزء المقرر تثبيته عليه ، إن كان ممن ليس لديهم لوح لسبب من الأسباب . وبعد وثوق الولد من حفظه ، يتقدم أمام الفقيه أو العريف ليسمعه ؛ فإذا أظهر الاختبار حفظه جيداً ، أُمِرَ بمحو اللوح القديم بالعبارة الاصطلاحية « إمْسَحْ » ، وبكتابة اللوح الجديد . فإذا فرغ من كتابته كان عليه تصحيحه على الفقيه أو العريف ؛ وبعدئذ « يُعلَّق » إلى الفترة الثانية بعد الظهر ، بعد الأمر بالعبارة « علّق » .

(شكل ٥٢) تعليق الألواح

ويلاحظ فى هذا الوقت ، أن الأولاد الذين يبكرون بحفظ ألواحهم ثم كتابتها وتصحيحها وتعليقها ، لا بد أن يعملوا عملا فى مساعدة غيرهم من المتأخرين ؛ حتى إذا فرغ جميع الأولاد من كتابة ألواحهم الجديدة وتصحيحها ، حق لهم الانصراف لفسحة الغَدَاء أو الظهر .

قد تستغرق فسحة الغداء ساعة أو بعض الساعة ، لأن الاولاد تختلف بيوتهم قُرْباً وبُعْداً ، واستعداداً لوجود الطعام أو إيجاده ، وحضوره أو إعداده ؛ ولهذا تجد بعض الاولاد يتأخر فى حضوره ، وبعضهم يبادر بالعودة ، وقد يحمل معه رغيفاً أو كسرة خبز ، يتبلغ بها إلى العصر حين يعود للمنزل ، أو إلى المغرب ، حين تكون الأكلة الأساسية أو العَشاء .

شكل (٥٣)
العريف يسوقهم لتثبيت الماضى !

فإذا ما تم حضور الأولاد جميعاً بعد الظهر ، بدءوا بتثبيت الماضى ، أى تكرير جزء مما سبق حفظه ، حتى لا يُنْسى مع طول الوقت . وبعد

تسميع من يكون عليه أن يُسمع ما قرأ، يتوجه الأولاد إلى الألواح المعلقة، فيبتدئون فى حفظها المرة الأولى، قبل انصرافهم عصراً. ولعلك ذاكر أن الأولاد حفظوا ألواحهم فى الصباح، فماذا يحفظون الآن؟! هم يحفظون الألواح الجديدة المرة الأولى، كما قلت لك، أى حفظاً أولياً أو «تكسيراً»؛ حتى إذا ما انصرفوا إلى منازلهم، واستراحوا ليلتهم، وعادوا ثانية فى الصباح التالى إلى الكتاب، أثرت «فترة الراحة» فى إجادة الحفظ حينئذ. وقبيل انصرافهم عصراً لا بد أن يسمع كل منهم لوحه الجديد، أى يؤدى الاختبار فى الحفظ الأول، حتى إذا كان اليوم التالى يستعيدون حفظ هذه الألواح، ويسمعونها قبل الظهر، وهكذا.

يدور العمل اليومى دورته هذه، فيما عدا يوم الخميس، فإنه يكون نصف يوم فقط، يقرأ فيه جلة الأولاد ماضيهم، ويكتب بعض المتقدمين ألواحهم ويحفظونها، ثم ينصرفون عند الظهر إلى يوم السبت صباحاً. ويظهر أنها سنة إسلامية، منشؤها خروج الأطفال لملاقاة بعض الخلفاء أو الملوك، عند زيارته بلداً من البلدان، بعد ظهر الخميس فانصرفوا من ذلك الوقت.

تتم هذه الأعمال يومياً بدقة لا انحراف عنها؛ وكل ولد يعرف ما عليه فيؤديه آلياً بدون استشارة، اللهم إلا فى بعض الأوقات، عند تغيير حالة ولد، مِنْ تقدُّم فى الحفظ، أو إتمام ربع القرآن أو نصفه مثلاً؛ فيقف وقفة لاستذكار الماضى أو تثبيته، وترك اللوح والحفظ، إلى أن يتأكد الفقيه، فى شهر أو أكثر، من جودة حفظ الماضى، وعندئذ ينتقل الولد إلى مرحلة أخرى.

شكل (٥٤) يحضره أبوه إلى الكتاب

ارجع بنا ثانية إلى الكتاب، حيث تقاطر الأولاد من كل حارة وناحية، وتبوأ كثير منهم مقاعدهم على الأرض أو المصطبة، أو على قطعة الحصير أو الفروة التى استأثر بها . هذا صوت الفقيه ينادى ، من الذاكرة ، لا من الدفاتر ، أسماء الأولاد ، سائلاً عمن غاب ومن حضر، وعلى بعض الحاضرين أن يستحضروا الغائبين، فيكلف حمّودةُ إحضارَ حمّاد ، لأنه يعرف داره أو هو من حارته ، ويؤمر أبو عيش أن ينادى أبا صوف. والويل لذلك الولد العنيد الذى يكره الكتاب ويعتاد التأخر ، ولا يأتى إلا بمِرْسال! ويل له إذا جاء مسوقاً من أبيه

شكل (٥٥) يسوقانه إلى الكتاب

بالعصا ، أو مجروراً من ذراعيه ، أو محمولاً على الأكتاف لا على الأعناق ! إذ يُلْقَى بين يدى الفقيه ، فيمسكه بإحدى يديه ، ويمسك العصا أو الجريدة أو «الزخمة» بالأخرى ، ثم يلهبه خمساً أو ستاً أو عشراً ، يستجير الولد بالله منها ، أو « يقع فى عرض » الفقيه ، أو يطلب السماح والمغفرة ، أو يعرض على الفقيه أن « يبوس » رجله ، أو يعلن التوبة وعدم العودة إلى هذا التأخير . وقد يضاف إلى هذه العقوبة الحرمان من الخروج ظهراً مع تكليف ولد إحضار غذائه له .

(شكل ٥٦) الأولاد فى جنى القطن

يستمر الكتاب طوال العام غاصًّا بأولاده ، إلا فى بعض المواسم الزراعية ؛ فالقرية فى وقت الحصاد أو جنى القطن ، فى حاجة إلى كثرة الأيدى ، فيغيب كثير من الأولاد عن الكتاب فى هذا الوقت . وهذا الصنف من الأولاد معروف لدى الفقيه ، فلا يتعب نفسه ولا الأولاد عند حلول هذه المواسم وغياب هؤلاء الأولاد ؛ لأنه يعلم أنهم يساعدون آباءهم فى حقولهم ، أو يُستأجرون عند غير آبائهم ، لتحصيل شىء من قوتهم .

على أن استمرار الدراسة طول العام ، قد يقطعه مواسم دينية أخرى ؛ ففى يوم عاشوراء ، وليلة المعراج ، ومولد النبى صلى الله

عليه وسلم ، يُقْفِرُ الكتاب من أولاده يوماً أو بعض يوم ؛ وفى عيدى الفطر والاضحى يسامح الاولاد أسبوعاً كاملاً أو عشرة أيام مثلا ، بعد إقامة حفلة تتلى فيها أدعية ومقطوعات وقصائد ، يتغنى بها العريف ، ويرد عليه الاولاد ، كما سترى فى ختام العيد .

ولا يفوتنك أن تعلم أن كثيرا من أوقات العطلة كان مصدر ثروة للفقيه ؛ إذ يفرض على الاولاد إتاوات أو ضرائب تعرف « بالصرافة » ، يحصلها الفقيه قبل المسامحة أو الانصراف بأسبوع أو نحوه . وكانت مبلغاً من الفلوس (المليمات) يتراوح بين ٥ و ٥٠ فلساً ، تبعاً لغنى وفقر الولد .

وكان الكتاب يسامح أيضاً لموالد بعض الأولياء والصالحين ، كمولد السيد البدوى ، وسيدى ابرهيم الدسوقى ، ونحوهم من الأولياء القريبة مزاراتهم من القرية . وكيف لا يسامح الكتاب ، وجميع أفراد القرية ، نساء ورجالاً ، أغنياء وفقراء ، منهمكون قبل المولد بأسبوعين ، فى إعداد العدة لشد الرحال إليه ؟ ! هذا السَّقَّاء ينتظر المولد ليسقى فيه ، فيعود منه بعيبة (زكيبة) من الخبز ، يقتات بها عياله شهراً أو شهرين ، وهذا الفقيه ، وهذا المقرىء ، كلاهما ينتظر سهرات المولد بفارغ الصبر والجيب ! وهؤلاء الأغنياء يُعِدُّون الهوادج للنساء ، والصناديق (الصحاحير) لنقل الكعك والفطير والمأكولات إلى المولد ! وهذا الولد يطالب أباه ببضعة قروش يصرفها فى المولد ! نعم هذا المولد يشغل كل الأذهان ، « فقد كان للأولياء سلطان على أرواح الشعب يتلاشى بجانبه أى سلطان آخر !

رأوا فى قبور الميتين حياتهم ... فقاموا إلى تلك القبور وطوّفوا
وباتوا عليها عاكفين كأنهم ... على صنمٍ فى الجاهلية عُكَّفُ »[1]

(١) من عبارات الأستاذ البندارى .

تلك هى عطلة الكتاتيب فى ذلك الوقت ؛ فبينما الحر القائظ ، أو البرد القارص، غير معتبر عذراً للتخلف عن الكتاب ، إذ الفقيه ينتحل الأسباب لتسريح الأولاد ، حيناً بعد حين ، كما يشاء ، فهو لا يتصل بحكومة حتى يحذو حذوها فى عطلتها الصيفية، ولا فى مواسمها الحكومية. بل « سيدنا » كما رأيت هو رب القانون لكتابه ، فى يده مدُّه وجَزْرُه ، وهو لا يحب العطلة إلا لما تجره من مغنم ومال ! ألم يكن هو الذى افتتحه فى الوقت الذى أراده ، بدون إذن أو تصريح من أحد ، وبدون تقيد بسُنَّة دراسية خاصة ، أو منهج مخصوص ؟ !

على أن هذا كله لا يمنعنا من أن نترك لك فى آخر هذا الفصل صورة من جدول الدراسة يلخص لك العمل اليومى فى الكتاب :

جدول الدراسة فى الكتاب

فى الصباح	١ — إعادة حفظ الألواح القديمة ، أى التى سبق حفظها أولياً قبل عصر اليوم السابق . ٢ — كتابة الألواح الجديدة ، أى نقلها من المصحف ٣ — تصحيح الألواح بعد كتابتها ، ثم تعليقها . ٤ — تسميع الماضى ، لمن لم يكتب لوحاً ، لأنه فى فترة التثبيت أو الاعادة .
بعد الظهر	٥ — تثبيت الماضى لجميع الأولاد . ٦ — تسميع حصة من الماضى لبعض كبارهم . ٧ — حفظ الألواح حفظاً أولياً ، ويعرف عادة «بالتكسير»

دولة الكُتاب

أو مملكة الصبيان

أمَّا وقد وقفت على شيء من مكان الكُتاب وزمانه ، فلا غنى لك عن ذكر شيء من سُكانه :

(١) رئيس الكتَّاب أو صاحبه ، هو الفِقى (مرخم الفقيه) ، أو قل هو سيدنا ! نعم هو سيدنا ، معشر سكان القرية ، على الإطلاق ، ندين له بالسيادة ، لأنه هو « المتنوّر » الوحيد فيها ، يجيد حفظ القرآن الكريم ، ويميز الحلال من الحرام ، ويفرق بين الطهارة والنجاسة ، ويعرف سر تفسير الأحلام . وربما عرف شيئاً من أحكام الطلاق وفتاوى الحل منه ؛ وكثيرًا ما يحنث الريفيون فى أيمان الطلاق ، فيهرعون إلى الفقيه ، لرد هذه اليمين ، أى للتحليل منها . وإذا شاء له الحظ أن يكون جباناً لا يجرؤ على الفُتْيا ، أو كان جاهلاً بهذا الباب من العلم ، فلا أقل من أن يعرف عالماً من علماء القرى المجاورة ، فيصطحبه الزوج المطلِّق إلى رحاب ذلك العالم ، كى يكون ترجُمان قلبه ، ومُحرّك لسانه ،

(شكل ٥٧)
الشيخ عبد العظيم القسط ابن الفقى الصغير وحفيد الفقى الكبير

ويوجه الفتوى حيث شاء، فيستحل الأجر، ويستحق الثناء والتقدير!

وقد نرى الفقيه فى بعض القرى مرشداً عاماً لأهلها، فهو يجهز لهم بناتهم إذا تزوجن، ويكتب لهم التمائم والحجب، ويحرر العقود والصكوك. نعم هو موثق القرية، قد نقل صور الوثائق الرسمية، لينسج على منوالها ويحذو فى التحرير حذوها. هذا إلى أنه قد يكون إمام المسجد وخطيب القرية وعالمها؛ وإن بَذه فى العلم فرد من أهل القرية فلا بد أن يكون من تلاميذه؛ وهو لذلك يخضع له، ويقبل يده، أسوة بأهل البلد، فتنتفخ أوداج سيدنا، ويضج بالدعاء لتلميذه أمام أهله وذويه، فيعظم كلاهما عند أهل القرية. وتحمل هذه المظاهرُ التلميذَ على تقديم «سيدنا» فى كل أمر، فيمتنع قليلاً، ثم يتقدم ليؤدى عملاً من الأعمال، كعقد زواج، أو تحرير عقد، أو خطبة جمعة، أو ما شاكه ذلك، من الأعمال التى يرتفع بها قدر الشخص عند الريفيين.

أما سيدنا فى الكتاب فهو الحاكم بأمره، المستبد بسلطانه، يحكم رعية مطواعَة، نسيت نفوسها، ونزلت عن إرادتها، أمام هذا الجبروت القاسى، والطاغية الجبار. ولقد أجاد شوقى بك، رحمه الله، وصفَه إذ يقول:

أهابَتْ هراوتُه بالرِّفاقِ ... ونادتْ على الجُيَّد الهُرَّبِ
وصَرَّفَ قُطْعانَه فاستَبَد ... ولم يخْشَ شيئاً ولم يَرْهبِ
أراد لمن شاء رعىَ الجديب ... وأنزل من شاء بالمُخصِبِ
وروَّى على ريِّها الناهلاتِ ... وردَّ الظِّماء فلم تشربِ
وألقى رقاباً إلى الضاربين ... وضَنّ بأخرى فلم تُضرَبِ
وليس يبالى رضا المستريح ... ولا ضجَر الناقم المُتْعَبِ

وليس بمُبْقٍ على الحاضرين بياضه وليس بباكٍ على الغُيَّب

وهو فى مجلسه ، قلما يفلت ولد من هراوته ، أو يده ، أو جريدته ، أو لسانه . وقد يبالغ فى العقوبة غير مبال بتوسل الولد ، أو شفاعة الشافعين ؛ كما أنه قد يتظاهر بالعقاب ، فيرده عن إثخان الولد رجاء من زوجته ، أو تدخل من أحد الزائرين ، أو المارّين بكتابه .

لا يجلس أمامه طفل للقراءة والتسميع ، إلا وقلبه مضطرب ، وجوارحه فى قلق ، والفقيه مع ذلك ممسك برقبته حتى لا يبتعد عنه إذا أراد ضربه .

(شكل ٥٨) الفقيه يسمع الماضى من الولد

وهو إذا احتل مكانه ، وافترش فروته ، كان دائم المشغولية ؛ فتجد أمامه طفلاً يُسمع لوحه ، أو يقرأ ماضيه ليثبته ، أو يشرح له سيدنا جزءا من كتاب التجويد والقراءات ، أو يلقن الفقيه خطبة الجمعة ليستظهرها . وقد يقطع عليه عملَه رجلٌ ، أو امرأةٌ جاءت تشكو ابنَها ، أو تسأله فتوى فى أمر شرعى ، أو فى تفسير حلم رأته الليلة ، أو فى فأرة سقطت فى قعب اللبن ، أيكون نجساً أم طاهراً ؟

وهو ، فى حضوره فى الكتاب وغيابه ، لا رقابة عليه ، واظب أم لم يواظب ؛ غير أن سوء ظن القرية بالفقيه المشغول بغير عمله ، يحمله على ألا يترك كتّابه إلا لسبب هام ، عادة أو عرفاً ؛ كأن يدعى لقراءة ختمة أو صمدية (عتاقة) ، أو لتشييع جنازة ، أو للقراءة فى فرح أو مأتم ، أو لحضور عرس ليشهد عقد الزواج ، أو يمر بالدور التى يقرأ فيها الراتب ، وهو سورة من القرآن يومياً أو خميسياً .

والساعة التى يغيب فيها الفقيه عن كتابه ، تكون ساعة سرور لدى الاولاد ، إذ فيها يتنفسون الصعداء ، ويستنشقون نسيم الحرية . وتجد الاولاد يلتقطون أخبار أمثال هذه الشواغل بدرجة يفوقون فيها رجال الصحافة ، فهم يسألون عن المرضى من أهل القرية ، ويعرفون من بلغ منهم درجة الاحتضار ، ويتجسسون عن مقدرة أهله على المراسيم الجنائزية التى قد يدعى الفقيه لشهودها . وما أشد سرورهم عند ما يصل إليهم نبأ موت واحد من القرية ، وخاصة الاغنياء منهم ، لعلمهم أن الفقيه سيقضى أيام المأتم بعيداً عنهم ، ولاهياً بسواهم ، فلا يزورهم إلا لماماً ! وهم إذا نظروا إلى مكان الفقيه أو مصطبته خالية منه ، ينبعث إلى نفوسهم شىء من الارتياح ، يظهر فى حركاتهم وكلامهم وأعمالهم .

ولا تسل عما يقع فى نفوس الاولاد من الغيظ ، عند ما يعلمون أن أهل الميت قد بخلوا على فقيدهم بقراءة صمدية يكون الفقيه عميدها ؛ والصمدية قراءة سورة الإخلاص ١٠٠ ألف مرة . يجتمع فقهاء القرية وقُرّاؤها من أولاد الكتاب قديماً ، لقراءتها فى أيام المأتم الثلاثة ، على حصتين ، قبل الظهر وبعد العصر .

أما هيبة الفقيه واحترامه ، أو قل ، الخوف منه والفزع والرعب ، فتحتل المحل الأول من قلب كل رجل وامرأة فى القرية ، بل كل ولد وطفل ، ولولا التُّقى لقلت : تهابه الأجنَّة فى بطون أمهاتها ، بل أقول : يخافه من لا يخاف الله من قطاع الطريق ! وإنى أسوق إليك حكاية رواها لى المرحوم سيدنا الشيخ محمد حسين ، من فقهاء إحدى ضياع الصعيد ، بالقرب من دير مواس ، قال ، بعد مقدمة من القول تذاكرنا فيها اضطراب الأمن فى صعيد مصر ، وكثرة قطاع الطريق ، وهجومهم على السابلة فى الظهيرة ووضح النهار : بينما كنت متوجهاً إلى محطة دير مواس ، فى الطريق على الجسر ، وإذا شخص يقفز من الحقول فجأة ، حتى جفلت منه أتانى ، وانخلع لمفاجأته قلبى ، وظننت أن هـذا اللص لا محالة فاتكٌ بى ، أو مجردى من ملابسى وحمارتى ، إذا أخذته الشفقة ! ولـكن سرعان ما سلّم علىّ ، وأمسك بيدى يقبلها ، وإذا هو فلان من قطاع الطريق ، يحيينى ، قال : فاطمأننت وزوَّدْتُه ببعض اللعنات التى تنطوى على الملق والمداهنة ، ثم سار معى قليلاً حتى صرفته .

وإجمالاً ، « سيدنا » فى الـكتاب هو سيدنا فى المجتمع ، وكُتّابه هو صورة من قريته ، بل صورة من بلاده . وهو على خلوه من روح النظام وبعده عن الاحتياطات الصحية ، كما رأيت ، حكومة أمرها مطاع ، وكعبة يقدسها الناس

يُدانى ثراها ثَرَى مكة ويقربُ فى الطهر من يَثرِبِ

نظرة فاحصة إلى سيدنا ، فى شكله ، وملبسه ، ومعلوماته ، وعقيدته ! « إنك ترى شخصاً يغلب عليه الروح الدينى ، الموروث عن عادات المجتمع

فى ذلك الحين ؛ وأهم مظاهره ، كان ، أداء الفروض الدينية فى أوقاتها ، والتمتمة بأوراد أو أدعية أو خلافها ، وكل ما عنده من العلم هو حفظ القرآن الكريم فقط ، دون أن يعرف له معنى إلا ما أتى عفواً . ويندر أن يعرف شيئاً من دينه معرفة صحيحة ، مع أنه على الرغم من ذلك ، هو مرجع الفتوى ومبرىء المرضى ! أما هندامه فيغلب أن يكون غير معتنى به ، وشكله يدل على عدم اهتمامه بنفسه ؛ فقد لا يتقدم إلى الحلاق الآ كل أسبوع أو أسبوعين .

(شكل ٥٩)

الشيخ مرسى الرويضى من هورين (غربية)
يمثل صلاح الفقهاء ، وقد نقلنا عنه ختام العيد

ومع هذا وذلك ، لا تنس أن سيدنا كان أخوف الناس من الله ، يبتعد عن الأذى ، ويتجنب المحرمات . وكان مثلاً من أمثلة الفضيلة ، ينتشر شعاعها بين جوانح الأطفال ، إلا ماندر ، فما كان أحدهم يجرؤ على إتيان منكر ، أو يكسل عن أداء فريضة ! رحم الله عهوداً جمَّلها التقى ، وزانها الوقار ! »[1]

(٢) أما العريف فهو مساعد الفقيه فى حضرته ، والوكيل المفوض فى إدارة الكتاب والإشراف عليه عند غيبته . يتولى استماع محفوظ

(١) من عبارات الأستاذ البندارى .

الاولاد، من الألواح، أو « الماضى » الذى يقرر على كل ولد استعادة جزء منه يومياً. فترى الاولاد يتسابقون ويتزاحمون أمامه للمثول بين يديه.

(شكل ٦٠) العريف وحوله الأولاد

هذا العريف لا يهابه الاولاد كالفقيه، وإن كان كثير من أمورهم بأيديه، لأنه يتأثر بصِلاتِه المختلفة مع التلاميذ، ورِشْوته أيسر من رشوة الفقيه، ولذلك يفضلون معاملته هو فى الاستماع، والإذن بالخروج وتعليق اللوح وغيرها. يختصونه بذلك دون الفقيه، إلا إذا حظره الفقيه على بعض الأولاد، الذين يخصهم بعنايته، فيسمع هُوَ لهم ما حفظوا من الألواح أو الماضى، لئلا يحابيهم العريف، فيأذن لهم بدون أن يجيدوا حفظ المقرر عليهم. وإنى شديد الأسف إذا صرحت لك غير خَجِل، بأن الأجزاء التى سمعها منى العريف، وهى قليلة، لا تزال غير جيدة الحفظ للآن، أو « متعتعة ».

« والعريف أكبر الأولاد سناً، إذا كان يحفظ القرآن؛ ويغلب أن يختار من أهل الفقيه، أو ممن يَمُتُّون إليه ببعض الصلات، من قرابة أو صداقة. والعريف يعمل فى الكتّاب بدون أجر، بل ربما عدَّ الأجر عقوقاً لأستاذه، فكم للفقى مِنْ مِنَنٍ معلقةٍ فى عنقه! وغاية أمانى أولاد

الكتاب أن يصبح الواحد منهم عريفاً، له ما لسيدنا من هذا المركز وذلك السلطان، وإن لم يكسب من وراء ذلك درهما ولا ديناراً.

على أن منصب العريف فى الكتّاب، على رفعته، محفوف بالمخاطر، إذ قلما تدوم لذة الحكم فيه تحت سيادة الفقيه، فتديل هذه المملكةَ الفخمة بَطْشةٌ من يد سيدنا، فيصبح العريف بين الفلقة والعصا، وتصير دولته كما صارت يلذ عبد الحميد:

أبيح حماها وانطوى مجدُ ربّها ... وقامَتْ على البيت الحميدى نوادُبه
ولم يُغن عن عبد الحميد دهاؤه ... ولا عصَمَتْ عبدَ الحميد تجاربُه»[1]

(٣) رأيت أن الحاكمين فى دولة الكتاب هما الفقيه والعريف، ولكن لا تنس أن «زبيدة وراء الستر فى خدرها»! وتلك امرأة الفقى وخطرها فى هذه الدولة، فويل لمن لا يتملقها أو يتحفها بحجر من الخبز «السُّخْن» أو الفطير أو غيره! وطوبى لمن اتصل بها عن طريق الهدايا التى تمر «ترانسيت» إلى قاعتها الداخلية، بدون علم الأولاد أو الفقيه نفسه، لأنه لا يريد اطلاع الأولاد على هذه الهدايا إلا من باب التشجيع!

على أنه قد يستخدم الإرهاب فى ذلك، وعصاه كفيلة بدفع الولد إلى حمل أمه على عمل فطيرة خاصة بالفقيه، أو وضع «كوز» من الذرة، أو قثاءة أو خيارة فى جيبه، يلهى بها الفقيه عنه، عندمقابلته وتفتيشه. أما أبناء الفقيه وبناته فلهم على أولاد الكتاب دالّة، تمنع أى ولد من التعرض لهم، أو من البخل عليهم بما فى يده؛ وهنيئاً لمن نال حظوة لدى ابن الفقيه أو بنته، إذ يصبح من المقربين، الذين تحرم أرجلهم على الفلقة،

(١) من عبارات الأستاذ البندارى.

وظهورهم على الجريدة «والزحمة» ، وإذا قدر لأحدهم شيء من العقوبات كان تمثيلياً فقط ، وكأنها مداعبة من الفقيه .

(٤) ولنعد إلى الشعب فى « مملكة الصبيان » أو دولة الكتاب ! هذا شعب ديمقراطى ، كلهم فى صعيد واحد ، تجد فيه ابن الغنى والفقير على أرض المساواة ، لا يمتاز الأول عن الثانى إلا بقطعة من الحصير البالى ، صغيرة بحيث لا يُرى فضلها من تحت جلبابه . أما ذلك الولد المبعد فى زاوية من الكتاب فهو ذو مرض فى رأسه ، هو مرض السَّعْفة أو القَرَع ، عزله الفقيه عن الأولاد لئلاً تصل إليهم العدوى منه .

وأولاد الكتاب كلهم ذكور إلا بنتاً أو بنتين ، خصها الله بعاهة فى البصر غالباً ، يقرئها أبوها القرآن ، فينفعها إذا أعوزها الزواج ، أو ليعوض به بصرها فيه .

(شكل ٦١)
سكبة الصوف على رأسه

وقد رأيت أن معظم هؤلاء الأولاد حفاة غير منتعلين ، لا يغطى جسمهم إلا فرد من الثياب ؛ نسج من غزل الكتان المصرى ، الذى يغزل وينسج بالقرية ، ويعرف « بالقماش الفلاحى » وقد غطى رؤوسهم قلانسُ (طواقى) رقيقة ، وقلما وجدت من يلبس قلنسوة من السكبة (الشبيكة) الصوفية أو القطنية ، وترى صدورهم عارية ظاهرة من جيوبهم أو أطواقهم ؛ وهذه الحالة إذا ساعدت على المناعة الصحية من ناحية فقد تَضُرُّها من ناحية أخرى .

أما وجوه الأولاد فقد كساها الشحوب ، وأما عظامهم البارزة فقد أعوزها اللحم تحت الجلد ، وأما الأبدان فقد علاها السقم ؛ حتى إنك لتميز ولد الكتاب ، فى ذلك الحين ، من ابن الفلاح ، الذى لم يضمه قفص التعليم ، وإن استوى كلاهما فى المعيشة المنزلية ، والسن ، ووسائل التربية ، لأن الثانى يتمتع بالهواء النقى ، والحرية المطلقة فى الحركة ، كما يقوم بقسط من العمل الجسمانى المنشط للدورة الدموية .

أما عقليتهم فقد تخرج على القول المألوف « العقل السليم فى الجسم السليم » لأنهم أقوى تفكيراً ، وأذكى جناناً من أولئك الغلمان الفلاحين الذين ينطبق عليهم القول : جسم البغال وأحلام العصافير . ولا تنس أن

شكل (٦٢) أولاد الكتاب عند الانصراف

حبس الأولاد فى الكتاب واجتماعهم ، قد يؤثر فى أخلاقهم إذا استنشقوا نسيم الحرية ، فهم شياطين الأرض ، إذا أمروا بالانصراف منه ، يخشى

الناس من سكان الحارة شرّهم «ومعاكستهم» ، ويحسبون لوقت انصرافهم حسابه . يزعمون أن « ابليس » يخشى بأسهم أيضاً ، وأنه تقمص صورة حمار خوفاً منهم ، فأمسكوا به والتفوا حوله ، وأتوا معه أعمالا خبيثة ، فهو لذلك لا يقف فى طريقهم ، ويفر منهم ، إذا انصرفوا .

فهم كما قال شوقى بك رحمه الله :

عصافير عند تهجى الدروس ... مِهارٌ عرايد فى الملعب
جُنون الحداثة من حولهم ... تضيقُ به سَعَة المذهب
عدا فاستَبدَّ بعقل الصبىّ ... وأعـدى المؤدِّبَ حتى صبى !

وقد مر بك القول أن هؤلاء الأولاد قد يكونون عوناً فى أعمال كثيرة ، كتقشير القصب المصرى (الغاب) ، والذرة وتفريطها ، وجدل

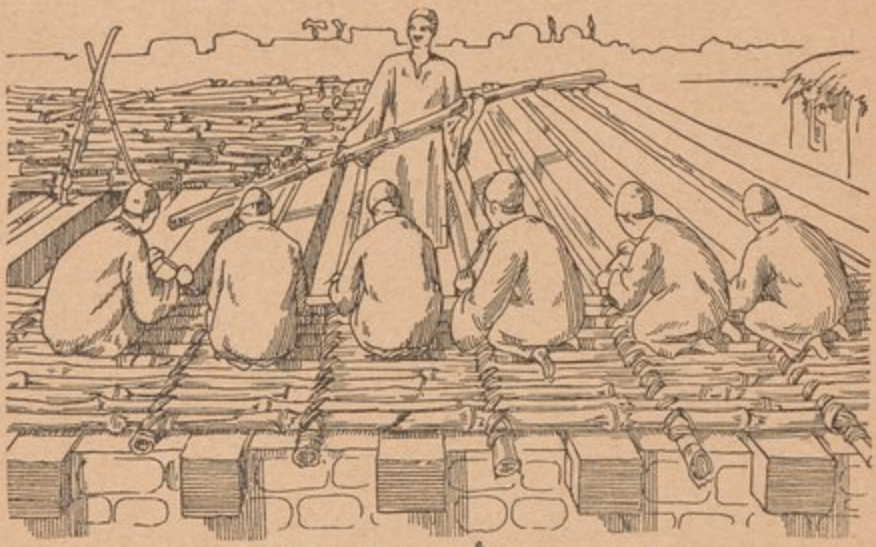

(شكل ٦٣) الأولاد يجدلون السقف

السُّقُف ، ورص اللَّبن (الطوب) وتقليبه ، ودوس الطعام ، وما شاكل ذلك ، من الأعمال التى تحتاج إلى كثرة الأيدى .

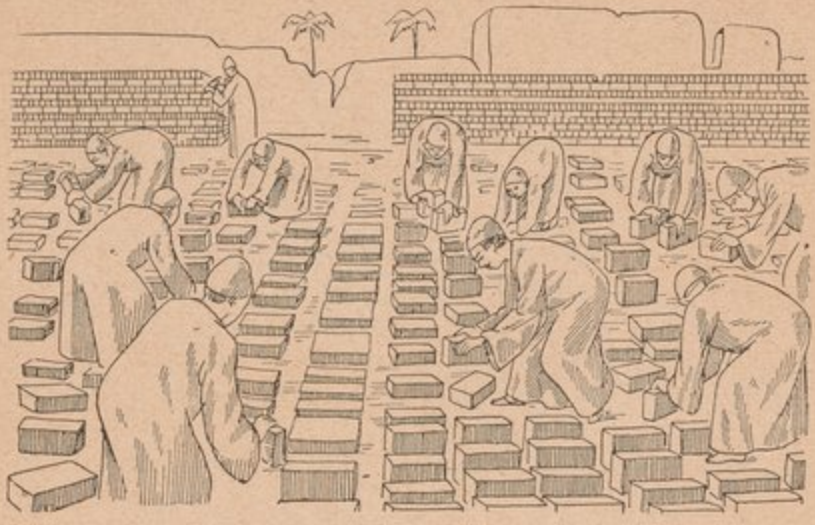

(شكل ٦٤) الأولاد يقلبون الطوب ويرصونه

لا نختم هذا الموضوع ، قبل أن نشير إلى حالة الأولاد الاجتماعية . كان الروح الاجتماعى بين الأولاد صورة منه فى القرية ؛ فكان أهل القرية فى ذلك الحين كتلة اجتماعية تعاونية ، يشاطر بعضهم بعضاً أفراحه وأتراحه ، ويساعده فى أعماله ، مزاملة ، فى المنزل والحقل . وحتى فى السفر والمجاملات المألوفة كالتعزية ، والتهنئة ونحوها .

هذا أبو شرف الدين يزوج ابنه ، بعد أن خرج من الكتاب ، وهو يفكر فى إعداد الوليمة العامة لأهل القرية ، ومن يدعى معهم من القرى المجاورة ، وفى إعداد كعك الفرح ، فيحتاج إلى طحن أربعة أرادب من القمح والذرة ، وعدة قناطير من السمن ، وبضعة أحمال من الوقود للخبز والطبخ ؛ فهل يشترى شيئاً من هذا كله ؟ ! لا ! ها هن أولاء نساء الحارة ، يحملن القمح ، بعد إخراجه من المخزن ، إلى الترعة القريبة لغسله ، ثم نشره وتنقيته وتجفيفه . يحملنه فى غرائر فوق رءوسهن ، وقد لبسن

جديد الثياب ، وهزجهن بأعذب الأغانى . فإذا ما تم ذلك ، وتم إعداد

(شكل ٦٥) يحملن قمح الفرح إلى الترعة لغسله

الذرة وتحميصها فى أفران البيوت المجاورة ، فُتِحَتْ طواحين الحارة

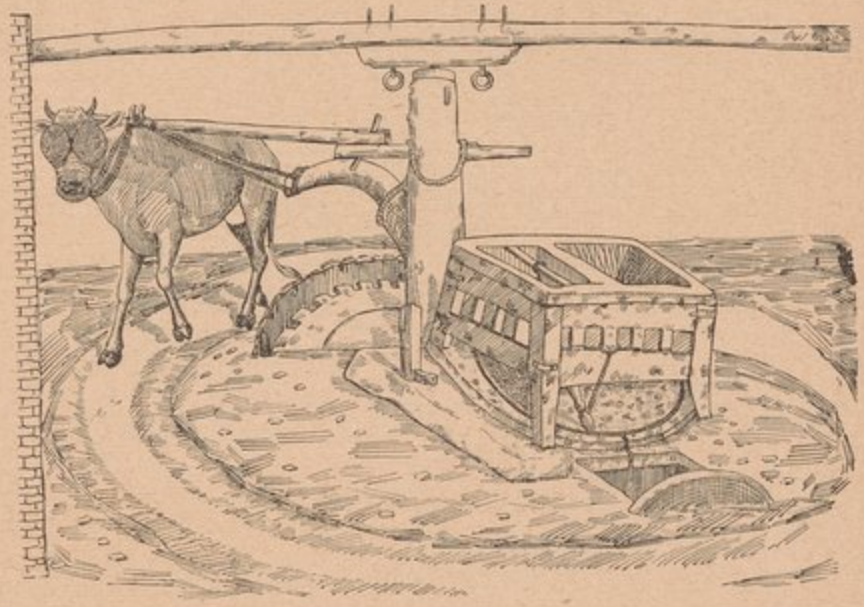

(شكل ٦٦) طاحونة الحارة

وجاءت الثيران تعلَّق فى هذه الطواحين ، وقد جَلَّلَ قَرونَها مناديل الحرير الحجازى ، وعقود الذهب ، وتناوب رجال الحارة السهر فى تلك

الطواحين ، يسوقون ثيرانهم ويناوبون بينها ؛ فإذا جاء الصباح دخلت نساء الحارة الطواحين ، وعلى رءوسهن « الصوانى » المكللة بالفطير (المشلتت) وعسل النحل . ومتى تم طحن القمح والذرة ، تكاتف نساء الحارة على نخله ، فى حين تذهب طوائف منهن للمرور على بيوت القرية يحملن القدور على رءوسهن يجمعن فيها اللبن الحليب والخاثر ، والقشدة والزبد ، فإذا ملأنها عدن لبيت الفرح فأفرغن ما جمعن هناك ، إلى أن يمررن على القرية بيتاً بيتاً ، قائلات « عقبال عندكم » أو العقبى عندكم فى المسرات .

(شكل ٦٧) اللبن ! (عقبال عندكم !)

وفى كل بيت يعمل أهله حساباً « لِلَمّ اللبن » ، فيمسكن عن التصرف فيه ، حتى يؤدين هذا الواجب . وإذا تم جمع اللبن وقد حُدّد ميعاد الفرح أو « الدُخلة » ، بدأن فى عمل الكعك ، أصنافاً وألواناً ، ويدعى

للإشراف عليه عادة سيدات نساء القرية ، ممن اعتدن مباشرة الأعمال الدقيقة فيه ، فيجتمعن فرحات مغنيات مزغردات ، نساء و بنات .

ولكن ما مقدار الوقود ، الذى يخبز نحو أربعة أرادب من الكعك والخبز ، والذى يُطبَخ به ثورٌ أو عجل ، وعدة كيلات من الارز المفلفل وقِدْرٌ من الحلوى أو الأرز أبى لبن وغيرها ؟ !

(شكل ٦٨)
جمع المسكة من البيوت

لا تنزعج ! فهناك رجلان أو ثلاثة ، ومعهما امرأة أو امرأتان ، يتبعهما حمار أو حماران ، على كلٍّ « شنفة أو شناف » أى شِباكة من المسَد.

يدور هؤلاء على أبواب البيوت فى القرية ، يجمعون الجِلّة أو « المِسكة » وهى روث البهائم المقرص ، الذى يستخدم أساساً للوَقود فى القرى . فإذا ملئت الشِّباكة أو « الشلفة » ذهب بها واحد ، فأفرغها فى بيت الفرح .

وهكذا حتى يدوروا على القرية بيتاً بيتاً ، كما دارت لمأمة اللبن . وبهذا العمل يمتلىء بيت الفرح باللبن والزبد والوقود ، فيزيد على حاجة الفرح منها الشيء الكثير .

هذا مثل من أمثلة التعاون — كان — فى القرية ، ومنه نقل الأولاد تعاونهم ؛ فهم يشتركون دائماً فى عمل «غَدْوة» ، أو أكلة ترمس ، أو صنع مداد ، أو نحو ذلك . وهم فى ألعابهم متضامنون أيضاً ، يجتمعون كل

شكل (٦٩) الاولاد يلعبون بكرة المضرب (الجج)

عصر ، للعب بالكرة اليدوية (إيده ، أو سنّه ، أو لحكُه) أو المضربية (حج) ، أو «ساعى» أو ما أشبهها . ثم ينصرفون للعَشاء ، ويجتمعون

شكل (٧٠) يلعبون ساعى

بعد العِشاء فيلعبون «الحكشة» أو «الطاقية فى العب» أو «طقطق الحجر» أو «سمسم القرع وجا خيره» أو «النّطّة» أو «لا ينزل ولا يزلزل إلا الحصان أبو شريبه» أو غيرها من الألعاب الريفية المألوفة.

وقد تقوم بين أبناء الحارة من أولاد الكتاب، وحارةٍ أخرى، خصومةٌ أو منافسةٌ، فيعلن كلٌّ منهما الحربَ على الآخر. يخرج أولاد الحارة إلى الجُرُن، يحمل كل منهم جريدة طويلة، أو قصبة (غابة) ثم يتواجه الفريقان، وتلتحم المعركة، بعد نداءات صبيانية مثيرة، كقولهم:

« يا محلبه! شدّى ولبّى! أولاد حارة ... على ... »

شكل (٧١) تلاقى الجمعان بالرماح أو العصى، بعد التقاذف بالطوب!

فيأسر فريق منهم بعض أولاد الفريق الآخر، أو يجرده من سلاحه، أو يولى واحد منهم الأدبار.

ويظهر أن المقامرة لم تَفُتْ أولاد الكتاب، فهم يلعبون «أمك فى

العش والّاطارت ! » مراهنين على حبات الفول ، أو « طرّه والانياظ ! » ، أوهم يقامرون على مسابقة القوة فى « ضرب القصب » أى كسر أعواده

شكل (٧٢) يلعبون بالقصب !

باليد ، أو قطعها بالمدية أو الفأس . وهذه اللعبة الأخيرة كانت تتطلب فلوساً ، فهى لذلك كانت تقتصر على الكبار والأغنياء من الأولاد .

تلك هى الحال الاجتماعية ، بين هذا الشعب الحبيس ، أولاد الكتاب أو شياطين الأرض فى القرية . ترى ماذا يسوسهم ، أو ما القوانين التأديبية التى تسن لحفظ النظام بينهم ؟ ! لقد يثورون أحياناً على بعض أفراد القرية ، فلا يحول بينهم وبين أذاه إلا رفع الامر للفقيه ؛ بل لقد يتآمر كبارهم ومجرموهم على الفقيه أو العريف ، فتقع حرب أهلية داخلية فى الكتاب ! وويل للمتآمرين أو الثائرين إذا انعقدت المحاكمة !

وإنّ شعباً شرّيراً كهذا الشعب ، لجدير بأن تسن له عقوبات تأديبية رادعة ، وهذا ما ستقرؤه فى الفصل التالى .

محكمة الكتاب

و

العقوبات التأديبية فيه

أليس الكُتاب مدرسة لها نُظُمها الخاصة ، ولا يقوم للنظام أوَدٌ بدون شهر سلاح العقوبات فيه ؟ ! أليس سيدنا هو الموئل الروحى الأعلى فى القرية ، وهو الرئيس المتربع فى دست التصرف فيها ، بعد عمدة القرية وحكامها ؟ ! أليس سيدنا هو الذى يقرأ عليه العمدة أحياناً بضع صفحات من بعض الكتب الدينية ، يشرحها له ، فيكون معلمه كبيراً ، إن لم يكن قد رباه فى كُتّابه صغيراً ؟ !

هذه « أم الخير » جاءت تشكو للفقيه عبث ابنها « طُلْبه » بالمنزل أمس ، وتهجمه على قاعة اللبن ، وأكل قشدة قَعْب « مترد » كانت أعدّته لجارتها ، لمناسبة « خميس » زوجها .

وهذا « البعل » جاء يطلب عقاب ابنه « احمد »

شكل (٧٣) يشكون ابنهم للفقيه

لأنه أراح الماشية أمس من البرسيم ، قبل أن تشبع منه ، فلم تدرَّ لبنها بسهولة ، وكان لبنُها أقلَّ منه كل يوم .

وهذا الشيخ « سيّد احمد » جاء يشكو ابنَه « محمداً » ، لأنه مزَّق ورقة من كِتاب ، كان فى صندوق الكتب . نودى المتهم أمام الفقيه ،

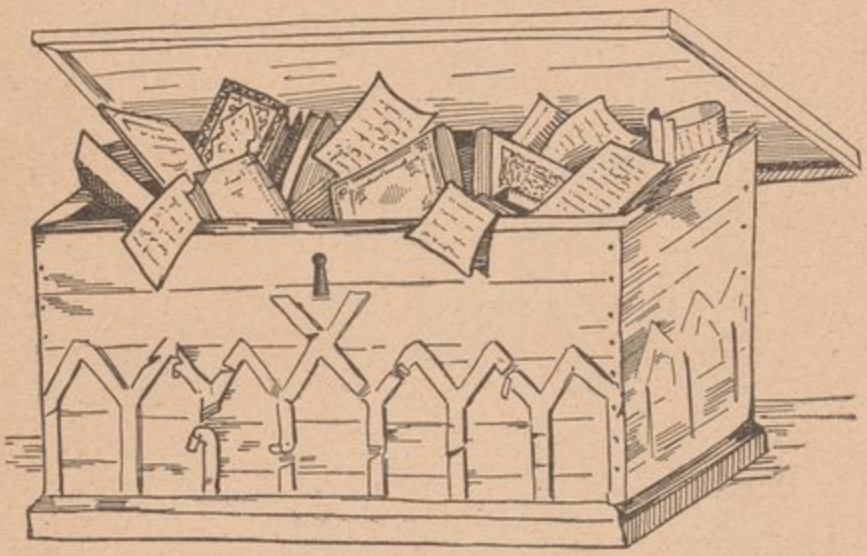

شكل (٧٤) صندوق الكتب القديم ، وهو أصل « المكتبة الجوادية »

وجلس أبوه فى كرسى الاتهام ، وأخذ المسكينُ يتمتم بكلمات يقطعها غصَّتُه بريقه ، من شدة ما يرى من أهوال ، لا من هول واحد ؛ فهو يخشى أباه بطبيعة قسوته فى التربية ، لحرصه على تربية ولده تربية مستقيمة ، وهو يهاب الموقف لأنه اتهام صريح ، وهو متأكد من العقوبة ، لأنه إن فر من « الفلقة » فلن يفر من عشر جرائد على ظهره .

أخذ الولد يفكر فى أمره بين الرهبة والحيرة ، ظاناً أن تمزيقه لتلك الورقة من الكتاب ، لم يكن إلا قياساً على أوراق كتاب آخر ، هو أحد مجلدات « الفتاوى المهدية » الأربعة ، التى اشتراها أبوه مأذون

الشرع الشريف بالقرية ، أو بعبارة أصح ، فرضتها عليه المحكمة الشرعية ، بحكم وظيفته ، فدفع فيها دينارًا « جنيهاً » كاملا . أودعها مع الكتب صندوقاً قديماً ، كانت زُفّت به أمه إلى أبيه ، وأخذ الزمان أو الإهمال يعبث بهذه الأوراق التى لم يعمل فيها مِقَصّ المطبعة ، فكانت الملزمة الواحدة فرخاً من الورق عريضاً . ظن هذا الصبى المسكين أن تلك الأوراق كلها مباحة ، وأنها ليست كتباً كالمصحف الشريف الذى يقرأ فيه ويحترمه فى الكتاب ! لم يدر أنها تشترى بالذهب ، وأنها يجب أن تصان وتلف فى غُلُف من الورق أو تربط بخيط ، وأن الزمن

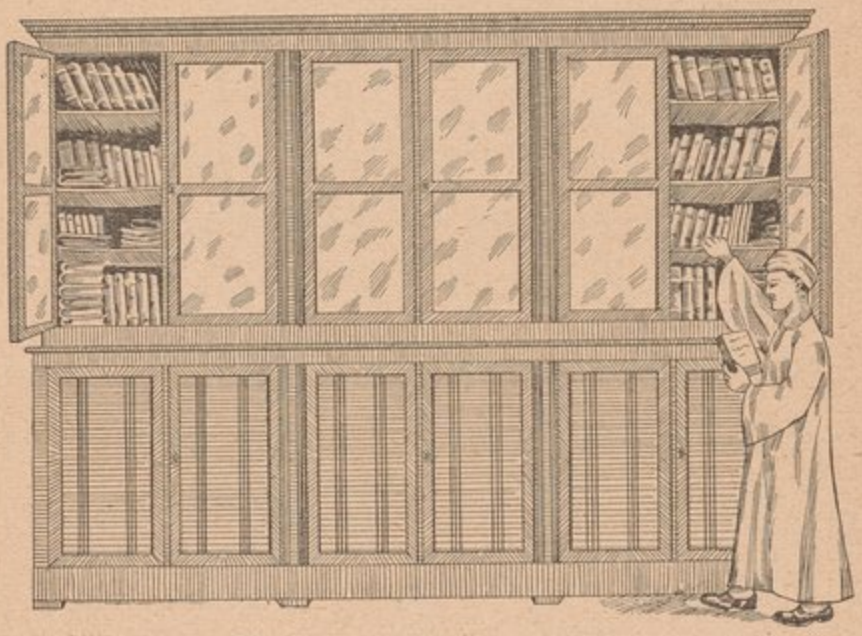

شكل (٧٥) جزء من « المكتبة الجوادية » بكفر هورين

سيلجئه إلى العناية بها ، وأنه سيقضى حياته بينها ؟ ! لم ينفعه جهله بهذه القوانين ، فكان الحكم عليه بالمَدّ فى « الفلقة » ! بدأ الفقيه يضرب رجليه بلا شفقة ولا رحمة ، ولم يتل عليه نص الحكم ، ولم

يذكر له عدد العصى التى ستنهال على قدميه ، كما هى العادة . ذلك لأن الجرم شنيع ، ولأن والده أى « النيابة » طلبت التشديد فى العقوبة لتكون رادعة ، لئلا يعود لمثل هذا الجرم ؛ إن والده يُعدُّه فى حياته ليكون عالماً ، ولا حياة لعالم بدون الكتب .

يذكر هذا الولد ، أن عدد العِصِىّ التى تلقاها على قدميه بلغ ثلاثاً وعشرين ، خمدت منها أنفاسه ، ونَفِدت كل توسلاته ، من تعلق « بعرْض الفق » ، ومن الحلف « والنبى يابَه ! » ومن « تُبْت ! » و « حَرَّمت ! » الخ . كل ذلك والوالد يشهد جلد ابنه ، على ذنب لم يكن يعرفه . إلا أن هذه « العَلْقة » كان لها أثرها الحميد ، فشب هذا الصبى من يومها على المحافظة على الكتب ، والحرص عليها وحبها ، وتأسيس « المكتبة الجوادية » التى أضحت فى هذا الوقت تحوى فوق ألفين من المجلدات ، من كتب مختلفة .

تلك نماذج من الشكاوى التى ترفع للمحكمة التأديبية التى مركزها فى الكتاب ؛ فلا يقع نظر ولد على أبيه أو أمه بجوار الفقيه إلا اضطرب قلبه وانخلع لبُّه ، لأنه لا يعدم حدثاً يكون سبباً فى شكواه ، فسَوقِه إلى الجلد . وويل له إذا نادى الفقيه « يا واد يا بوعيش » ! فيلبى مسرعاً مرتجفاً « نعم يا سيدنا » ! وما هى إلا أن يؤمر الأولاد برفع أصواتهم فى القراءة ، بعد أن يمد هذا الولد فى « الفلقة » ، فيعلو صوتُهم صياحَه ، ويغطى على استغاثته ، حتى ينتهى الفقيه من العدد المقرر ضربه ، فيقوم الولد زاحفاً على يديه وركبتيه ، لأنه لا يستطيع الانتصاب على قدميه ، من أثر ٢٠ أو ٣٠ جريدة استوفاها .

ولكن ما لهؤلاء الآباء والأمهات ، القساة القلوب ، يبتسمون لتعذيب أبنائهم على هذا النحو ، وهم يجلدون على مرأى منهم ، يرون

حركاتهم التى تمزق الأفئدة ، ويسمعون أصوات استغاثتهم التى تفتت الأكباد ! ؟ لا تعجل باللوم ! فهم يعتقدون أن « عصا الفقى من الجنة » ، ويرون بحق أن الطفل الذى يُعاقَبُ هو الذى سينجح ، وأن من يكبر على ضرب الفقى ، أو من لا يخضع لعقوبات سيدنا ، سيكون من المطرودين ، الذين لن يفتح الله عليهم !

وقد يضاف لهذه النظرية القائلة «عصا الفقى من الجنة» حكمةٌ أخرى لا يزالون يدينون بها ، ولا تزال تتردد على الألسنة ، وهى « من علمنى حرفاً صرت له عبداً » . هذا الرق ، وتلك العبودية للفقيه، سرَتْ إلى أهل القرية من ناحيتين : الأولى روحية ، وهى احترامهم الفقيه ، وسلطانه على العوام منهم ، والأخرى تاريخية ، تلقوها عن سياسة الجلد بالسوط (الكرباج) و« التيلة » ، فى أيام الاستبداد التى كانت قريبة منهم ، فهم يفضلون جلد الفقيه ، فى سبيل الدين والأدب والعلم أو القرآن ، على جلد الحاكم المستبد الظالم .

لهذا لا يأخذنك العجب ، إذا رأيت مبالغة الفقيه فى العقوبة ، ورضا الآباء والأمهات عن ذلك ! بل ربما كانت هذه « العَلْقة » أو هذا الشوط من الجلد ، الذى تم على يد الفقيه — نَذْراً على الوالد أو على الوالدة ، يجب أن تبرَّ به ، نَذَرَتْه وهى حامل فى ابنها هذا ! فهى لذلك تبتهج به ، وقد يولم الوالدان له الولائم ، ويتقبلان التهانئ لذلك : إن ابنهما قد ضُرب فى الكتّاب !

وقد كان هذا يغرى الفقيه أحياناً ،بالشدة فى العقوبة ، والاتخان فى الضرب ، إلى درجة كان يعجز فيها الأولاد عن المسير على الأقدام يوماً

أو يومين أو ثلاثة أيام ، إن لم يحدث الضرب ، أو اللكم واللهز ، بجسم الولد ، كدماً أو رضًا ، أو يترك به آفة مستمرة ، أو عاهة مستديمة ، يزداد من أجلها مقدار مكافأة الفقيه ! وإذا ما غضب الولد من الكتاب لذلك عاد به أبوه إلى الفقيه قائلاً : « اضرب واكسر وأنا أداوى » . هذا كله ، جعل سيدنا فى حلٍّ من فرض أية عقوبة ، لأى سبب ، مهما كان تافهاً ، على أى ولد ، ولو كان عند أبويه عزيزاً .

وربما كان السر فى هذا الاستسلام للفقيه ، حب الريفيين للذكور من الأولاد ، وتمنيهم أن يكون ابنهم متعلماً ، حتى يحتل مركز سيدنا فى القرية ، أو يفخر به أبوه فى القرى المجاورة ، فينبُه ذكره ويذيع صيته فيكون كما قال شوقى بك رحمه الله .

وعُـــذِّب بالعلم طلاّبُه ... وغُصُّوا بمَنْهله الأعذب
رمَتْهم به شهواتُ الحياة ... وحُبُّ النباهة والمكسب
وزَهْوُ الأبُوَّةِ من مُنْجِبٍ ... يُفاخِرُ من ليس بالمُنْجِبِ

والآن عُدْ بنا إلى الكتاب لنفحص عن آلات التأديب فيه :

(١) سيدنا كفيف البصر ، لا بد له من عكازة أو هراوة يتوكأ عليها ، ويتحسس بها طريقه فى الحارات والدروب ، لأنه يسير كثيراً بدون قائد . لا بد أن تكون هذه العصا غليظة متينة ، تتخذ من خشب « الشوم » أو من الخيزران ، إن كان الفقيه غنياً معجَباً ، أو إذا جاءته هدية من واحد من أهل القرية . فإذا دخل الفقيه الكتاب على عجل ، وصادفه مذنب لم يكن يستحق المَدَّ فى « الفلقة » ، فإن هراوته تنصفه فيضربه بها خمساً أو عشراً على « الواقف » ؛ وإذا كان جالساً ، فإن طول العكازة الذى قد يربو على الباع ، يمتد إلى ظهور الأولاد الذين بالقرب منه

وهم المقربون لديه ، فيُعملها فى ظهورهم ، ليستحثهم على سرعة الحفظ ، أو الاهتمام بالقراءة ، أو يستدعيهم لتسميع اللوح أو تصحيحه . هذه العصا أو تلك الهراوة ، قد لا ينجو منها رجل حلف

(شكل ٧٦)
بعد رد يمين الطلاق .

على امرأته بالطلاق ، فجاء للفقيه «ليَرُدّ» عليه يمينه ؛ فهو بعد أن يدفع «المعلوم» ويتلو الصيغة المقررة للتوبة ، يضمه الفقيه إلى صدره ، ويطوق عنقه بيساره ، ويُقَنّعه بالعصا خمساً أو ستًّا على ظهره ، يسأله أن يتوب لئلا يعود إلى هذه اليمين مرة أخرى .

(٢) وما هذه الحزمة من العصى فى ركن الكتاب؟ إنها قطع من الجريد ، أعدها الفقيه

شكل (٧٧)
ما هذه الحزمة من العصى ؟ !

للضرب خاصة ؛ فهو يقطعها فى طول ذراعين ، ويُسوّيها بسكين ؛ لأن قانون التأديب عنده ، يحتم أن تكون العصا مُسَوّاة ، فليس فيها نتوء ولا تجاعيد ، لئلا تضر جسم الطفل ! ! هذه الجريدة الغليظة لها وقتها ، وتلك الدقيقة لا تستعمل فى الوقت الذى تستخدم فيه الأخرى . ولكن هذا عدد من الجريد كثير ، لِمَ كلُّ هذه الكثرة ؟ ! ذلك لأن هذه الأدوات كثيرة الاستعمال ، وقد تستخدم بعنف فتنكسر ، فلا يشفع كسرها فى وقف العقوبة ، بل يسرع الأولاد حينئذ إلى مناولة الفقيه غيرها ، فتجد الفقيه مشغولاً دائماً بنَجْر الجريد أو تسويته . والجريد كما تعلم من مخلفات السعف ، الذى اتخذ الفقيه خوصه ليضفره . وقد يحل محله قطع من الخيزران ، تباع الواحدة فى السوق بقرش « صاغ » ، أو نصف القرش .

(٣) عجباً ! ما هذه الهراوة الغليظة؟ الجريد كثير ، ولكنها واحدة !

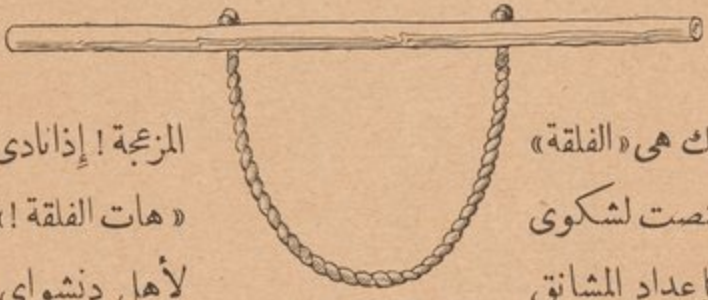

شكل (٧٨)
الفلقة المرعبة

تلك هى « الفلقة » المزعجة ! إذا نادى الفقيه وهو ينصت لشكوى « هات الفلقة ! » ، كان ذلك كإعداد المشانق لأهل دنشواى ، يوم نظرت قضيتهم . نعم ، إنَّ طلبَها حكم تمهيدى ، ينم عن عقوبة شديدة ، لا تنفع فيها شفاعة الشافعين ، ولا تضرع الباكين . هى قطعة من الخشب القوى المتين ، فى طول ثلاثة أذرع ، وفى غلظ الساعد ؛ ربط على الثلث من طرفيها ، حَبْلٌ مُحْكَمُ الفَتْل ،

لا يكون من الدقة بحيث يقطع الرِّجل ، ولا من الغلظ بحيث يؤلمها ، يزيد فى طوله عن ثلث العصا ، بمقدار يسع رِجْلَى الولد تدخلان فيه . تُلوى العصا ليُلَفَّ عليها ما فضل من الحبل ، بعد أن يمسك بالرجلين وتوثقا به .

هذان ولدان شديدان ، قد أمسكا بطرفى الهراوة ، وتقدما بها إلى رِجْلَى الولد ، يضعهما باختياره فى الحبل ، وإلا جاء ثالث فأدخلهما فيه . يأخذ الولدان فى لىّ العصا ، حتى تصبح هى والحبل وساقا الولد ، كتلة واحدة متماسكة . وهناك ترفع عن الأرض بمقدار جلسة الفقيه ، إذا أراد الضرب من جلوس ؛ أما إذا بلغت به شدة العقوبة للضرب من قيام ، فحينئذ ترْفع رجلا الولد مع « الفلقة » إلى نحو ثلثى قامة الفقيه ،

شكل (٧٩) ينهال الفقية على قدميه ضربا بالعدد

فترى الولد كالشاة المعلقة من عراقيبها ، ثم يهوى الفقيه بعصاه أو بالجريدة على قدمى الطفل ، وهو يعد قائلاً : واحد — اثنين — ثلاثة الخ حتى يتمم ما فرضه على الولد من ضربات ١٠ أو ٢٠ أو ٣٠ جريدة ، غير

مبال بما يحدثه المسكين من حركات ، وأصوات استغاثة ، قد يعجز عنها إذا زاد الألم فخمدت أنفاسه. وقد يحال بين الولد المضروب والحركة بإمساك يديه أو جلوس ولد ثالث على صدره ، لكيلا يتحرك ، فيختل تصويب العصا لقدميه ، اللتين يتبين الفقيه موقعهما بيساره ، ويُنزل عليهما العصا بيمينه . فاذا تمت العقوبة ، أو انتهى الجلد ، أمر الفقيه الأولاد بالكف عنه ، فيقوم زاحفاً . وقلما يتركه الفقيه بدون أن يشيعه بخمس أو ست ، على قفاه أو على ظهره .

(٤) وما هذه ؟ ! قطعة من الخشب دون شبرين ، قد أدخل بين شِقَّيها أو دُسّر فيها قِدٌّ من جلد غليظ . تلك هى « الزُّخْمة » ، يتخذها

شكل (٨٠) « الزخمـــة » أو الجلدة

بعض الفقهاء ، من بين آلات التعذيب أو التأديب ؛ فيمسك بمقبضها الخشبي ، ثم يهوى بالقِدِّ أو السَّيْر على جسم الولد ، ظهره أو بطنه أو جنبه ، يجلده بها ما شاء من جلدة . وهى ، مع لينها ، قد تترك أثراً أو كدماً ، فى فخذ الطفل مثلاً ، إن رَقّت ملابسه ، فلم تَحُلْ بين « الزخمة » وجسمه .

(٥) ولن يعدم الفقيه من غير هذه الأدوات ، عند الضرب ، حبلاً فى يده ، أو فتيلة خوص (شَلْق مفتول من الشُّقّار) ، يخيط بها المقاطف والغرائر ، فيطوّق بها الولد الذى أمامه ، خمساً أو عشراً .

(٦) وكان بعض قساة العرفان ، يعذبون بعض الأولاد ، بشك بإبرة أو نخس بمسمار ، أو نحو ذلك .

تلك هى العقوبات الجسمانية الشائعة فى الكُتَّاب ؛ وقد يضاف إليها حرمان الولد الانصراف للغداء ظهراً ، أو الحبس بعد انصراف الأولاد عصراً حتى الغروب .

وأسبابها ، كما ترى ، ليست كلها مدرسية ، فليست مقصورة على البطء فى الحفظ ، أو التأخير عن الحضور للكتاب ، أو التقصير فى عمل فيه ، بل قد يعاقب الولد فى الكتاب من أجل ذنب جناه ، أو عن عمل فَرَط منه ، فى المنزل أو الحقل أو الحارة والطريق ، مع أبيه أو أمه ، أو أى شخص أجنبى غريب .

وهذه العقوبات القاسية المرهقة ، قلما ينجو منها ولد من الأولاد ، مهما حسن سلوكه ، لأنه لا يعدم سبباً ولو واهياً . لذلك كان لها نتائجها الطبيعية ، من كراهة التعليم ، والهروب من الكتاب ، وإلا فضعف النَّفْس ، وموت الإرادة ، واضطراب التفكير عند الأطفال . ولولا ضغط بعض الآباء على أبنائهم ، وإرغامهم على المثابرة ، وتحمل آلام التعليم — لفروا من التعلم ، وفَضَّلوا أن يكونوا أمّيّين ، كما فعل كثير منهم . وإنَّ جُلَّ من حُرموا ورود مناهل العلم كباراً ، لأنهم فاتهم زمن الكتاب صغاراً ، ليذكرون بالغضب واللعنة ، سوء معاملة الفقيه ؛ ولا ينسون مهما كبروا وتقدمت بهم السن ، تلك الحوادث والوقائع التى كانت بينهم وبين سيدنا ، والتى كان من نتائجها بُعدهم إلى الأبد عن العلم والتعليم .

ومن لم يذق مُرَّ التعلم ساعة تجرع كأس الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم فى زمن الصبا فكبِّر عليه أربعا وفاته

أجـــور التعليم

خشيت أن أعنون هذا الفصل « بالمصروفات المدرسية » فيستولى عليك العجب ، أو تظن أن هناك مصروفات مقررة ، تدفع فى أوقات منظمة ، يحصلها صيرف ، يودعها خزانة الدولة . لا وأبيك ! فالكتاب مِلْكُ سيدنا ، وهو فى منزله ، وأهل القرية يعتبرون الفقى محط آمالهم ، ومرجعهم فى كل شىء ؛ فهم إذا دفعوا له أجراً على تعليم أبنائهم ، تبع ذلك كثير من الخدمات التى يؤديها لهم . لهذا كان اسم الفقيه فى منازل أهل القرية دائم الذكر ؛ ففى ليلة عاشوراء ، وفى ليلة المولد ، وليلة المعراج ، وليلة نصف شعبان ، ونحوها من المواسم والأعياد ، لا بد من إرسال ما ناب الفقيه ، أو « مناب الفقيه » ، وهو حقه فى الوزة أو الدجاجة ، أو اللحم الذى طبخ فى هذه الليلة . وفى يوم الخبز الفطير ، وفى كعك العيد ، وفى يوم الخبيز ، لا بد من إرسال ما يخصه فى ذلك .

ولكن هذا ليس أجراً على التعليم فقط . بل ، يقرأ الفقيه فى البيت « الراتب » ، وهو جزء من القرآن يقرؤه يومياً أو خميسياً ، على روح الأموات ؛ وهو يشيع موتاهم بقراءة البردة أمام الجنازة ، وقد يقوم بدفن الميت أو لحده ، بعد غسله وتكفينه ، ويحيى المأتم بقراءة ما تيسر من القرآن ، ويعمل لهم « الاستخارة » فى شراء جاموسة ، أو زواج ابن أو بنت ، ويعطيهم الفتوى فى أحكام الدين ، من زواج وطلاق ، وطهارة ونجاسة .

كل هذا ، مع تعليم الولد ، يستحق الفقيه أجراً عليه ؛ غير أن هذا الأجر أو « المعلوم » ، قد يؤدَّى فى وقته أو فى غير وقته .

إذاً ، لم تكن أجور التعليم محدودة ، ولا مفروضة على جميع الأولاد بالتساوى ، بل كانت ترتبط بمقدرة الآباء من جهة ، وترجع إلى شعورهم نحو الفقيه ، وإلى خدماته من جهة أخرى .

(١) ولكن هذا الفقيه ، رئيس القرية الروحى ؛ أفلا يجعل للتعليم بالمجان قسطاً من عنايته ؟ ! تدل مظاهر سيدنا على أنه زاهد فى الدنيا ، فهو لا يتفق على أجر يقرره ، أو كراء يقدره . وهو قد يحوى فى كتابه بضعة أولاد يتامى أو فقراء ، يعفيهم من الإتاوات الموسمية ، أو السنوية المفروضة عادة على غيرهم ، فهو يعلمهم ابتغاء وجه الله ورضوانه ، لا يبغى من وراء ذلك جزاء ولا شكورا .

(٢) وقد تجد فى الكتاب عدداً لا يتجاوز أصابع اليد ، من أبناء الصناع أو التجار ، أو النساء اللائى يتجرن فى بضاعة مزجاة ، ذات ربح قليل ، كالبقول والخضر ، من فجل وكرات ، وكالترمس والحلبة ، وكالبطيخ والقثاء ، والبلح والرمان ، وهؤلاء يدفعون للفقيه أجراً أسبوعياً ، قرشاً أو نصفه ، يرسل للفقيه كل يوم خميس ، فهو لذلك يعرف « بالخميس » . وإذا جاء الولد يوم السبت ولم يكن دفع « خميسه » ، فربما طرده الفقيه ، ورده إلى أبيه ، يطالبه به ؛ فإما أن يعود الولد بالقسط أو يَعِد بدفعه ، وإما أن يغادر الكتاب إلى غيره ، أكثر تساهلاً فى المطالبة ، أو ينقطع عن التعليم فى هذا الكتاب وفى غيره .

(٣) أما الصنف الثالث من أولاد الكتاب ، فهم أبناء المزارعين ، وهؤلاء أغلبية تجاوز الثلثين من الأولاد ! فأهل القرية زراع ، يرسلون مِنْ أبنائهم إلى الكتاب ، مَنْ هم فى غنى عن مساعدتهم ، فى الحقل أو الأعمال

الزراعية . هؤلاء القرويون ، قلما يستخدمون النقود فى المبادلات الصغيرة . فالواحد منهم يشترى فجلاً برغيف خبز ، ويشترى تمرًا بقليل من الذرة، ويشترى بلحًا بحفنة قمح، وقد يشترى قدح أرز بنظيره من الفريك، فريك القمح ، أو دشيش الذرة .

شكل (٨١) خزين الذرة
« كل سنة وأنتم طيبون ! »

هؤلاء يغلب على أجورهم التعليمية ألا تكون نقداً ؛ ففى موسم الذرة تجد بيت الفقيه محط غرائر الذرة ، التى يحملها إليه نساء القرية . كل تحمل (خزين) ابنها أو أخيها إلى امرأة الفقى فتتقبله

شكل (٨٢) خزين القمح
« عقبال خزين أخوه ! »

منها قائلة : «كل سنة وانتم طيبين ، والسنة الجايه تجيبوا خزين أخوه» . وفى حصاد القمح تحمل كيلاته كذلك لدار الفقى ؛ وقد تلحظ امرأة الفقى نقصاً فى المقدار فتطلب المزيد أو ترفض تفريغه ، لأنه لا يناسب « المقام » .

(شكل ٨٣) « شرش البصل »

ولا يخلو منزل الفقيه فى أثناء السنة ، فى المواسم المختلفة ، ولمناسبات شتى ، من أن يرد إليه « شرش البصل » أو حزمته ، إبان تقليع البصل ، يحمله إليه الولد ، وكذلك الثوم لمن يزرعونه . أما الذرة الخضراء ، أو دشيش الذرة ، وطبخة الفريك ، والملوكية والباميا ، والخيار ، والقثاء والفجل وغيره ، فهذا كله يرسل الى الفقيه أحياناً بدون

شكل (٨٤) الرحا بجوار الطاحونة تدش الدشيش لترسل للفقيه طبخة

(شكل ٨٥) يحمل العادة فى حجره

(شكل ٨٦) العادة بين يديه

طلب، من أولياء التلاميذ الذين عندهم هذه الأشياء. وقد يرسل الفقيهُ الولَد إلى أبيه أو أمه، فيطلب منهما ذلك، أو يطلب قعباً من اللبن، أو قطعة من الزبد، أو طبقاً من طبيخ، أو نحو ذلك. كل هذا يحمله الولد، أو أمه، أو أخته للفقيه، راجين المعـــذرة لقلته، واعدين بمضاعفته إن شاء الله تعالى

شكل (٨٧) العادة فى ظئر المقعد على الذرة أو القمح

وفى كل يوم عند انصراف الأولاد ظهراً، تلحظهم عند عودتهم للكتاب، وقد امتـــلأت حجورهم بالخبز.

ما هذا الخبز؟ فتش حجر واحد يوميا، تجد به عدداً من الأرغفة محدوداً، بين ثلاثة أرغفة أو خمسة. تلك هى «العادة». رغفان،

اعتاد الأولاد حملها يومياً بعد الغداء إلى منزل الفقيه يفرغونها فى ركن من أركان « المقعد » أو الغرفة العليا ، أو فى ظئر « القاعة » أو الحجرة السفلى ، فى غرارة أو على الأرض ، أو فوق كُومَة الذرة المخزونة هناك . وقد يرتفع عدد الأرغفة إلى عشرين ، يوم يخبز أهل البيت ، فيطوون من الرغفان الطرية هذا المقدار ، ويشفعونه بخرطة جبن أو خرطتين أى قطعتين ، من جبن أصفر قديم عتيق ، أو أبيض طازج حديث . ولهذا تستطيع أن تجيب على السؤال الآتي : « لماذا تنام القطة فى فرن الفقى دائماً ؟ » نعم ! لا حاجة له بالخبز فى الفرن ، فالعادة تكفيه وأهل بيته ، بل قد تزيد على حاجتهم .

شكل (٨٨) تحملان بعض « صرافة » يَس

أما يوم الخبيز الفطير فلسيدنا فطيرة ، أو فطيرتان ، وذلك حسب المناسبة ، ومقدرة أهل الولد . وقد تحمل أم الولد لدار الفقيه صينية رُصَّ فوقها خمس أوست فطائر ، مع عدة أطباق من الجبن أو عسل النحل ، لأنه ختم سورة من سوَر القرآن معينة . هذا الذى يحْمَل عند ختم السوَر ، كان يسمى « الصَّرافة » ، منقولة عن « صرافة » العيد أو المولد ، وهى المبالغ التى يجمعها الفقيه لصرف الأولاد ، أيام العيد أو المولد . ويختلف مقدار « صرافة » السور تبعاً لكل سورة ، وموقعها من القرآن الكريم ؛

فصرافة سورة الرحمن ليست مثل صرافة سورة يس أو طه أو الكهف ، أو النصف أو الرُّبع مثلاً . وبينما يقتصر فلان فى « الصِّرافة » على بضع فطائر ، إذ بالآخر يرسل جرة أو بلاصيًا من الجبن العتيق الأصفر ، مع قفطان من الشاهى الحريرى أو القطنى ، لصرافة سورة « يَس » مثلاً . وقد يصحب ذلك ريال أو نصفه أو ربعه ، حسب مقدرة الوالد .

« قاقْ — قاقْ — قاقْ »

ما هذا الدّجاج ، الذى يملأ بيت الفقى فجأة ؟ ! هذا وقت فيضان النِّيل ، وها هو ذا الفقيه قد نبه الأولاد إلى عدم الاستحمام فى الترع ، كما أنه أمر بأن يكون « ختم النِّيل » على أفخاذهم من الأسبوع المقبل . هو يحدد هذا الأسبوع حتى يأتى كل منهم بدجاجة ، هى « فرخة النيل » تُقَدَّم عند وفائه . وفى هذا الموسم يُحْمل من الدجاج لمنزل الفقيه بعدد رءوس الأولاد فى الكتاب إلا ثلاثة أولاد ، أو نحوهم ، أُعْفُوا من ذلك ، لأن أمهم لا تربى دجاجًا فى بيتها .

شكل (٨٩) ختم النيل على الفخذ

ترى بهذا الشكل أن منزل الفقيه مملوء بالخير من كل صنف ، من أجور التعليم فى الكتاب . وإياك ، مع هذا ، أن تعتقد أن هذا كل الأجر ، وأن الفقيه لا ينقد أجراً غيره ! ! اليوم يختم « عبد القادر »

القرآن ، وهو خيّر وابن الخيّرين ، لابد أن يدفع للفقية دينارا أو نصفه « خَتْم القرآن » . وفى هذه الفرصة تعلو وجوه أولاد الكتاب البشر والابرنشاق ، كما تُبْسط أسارير « سيدنا » لأنه قبض بضع ريالات ، وهو مبلغ لم يدخل جيبه من وقت ختم « ابى صوف » منذ ثلاثة أو أربعة أشهر ؛ فيضمه إلى تلك القروش أو الريالات التى عنده ، ثم يفكر فى استغلالها بالطرق المألوفة ، إذا كان مبلغها كبيراً .

تلك هى أجور التعليم فى ذلك الحين ، وهى وإن كانت ضئيلة مفرقة ، إلا أنها لها خطرها مجتمعة ، ولاسيما إذا ضم إليها ما يجمع من « صرافات » عيدى الفطر والأضحى ، حين تقام فيهما للأولاد حفلة تعرف بختام العيد .

شكل (٩٠) خروج الأولاد بعد ختام العيد

يا كتابنا لا توحشنا بكره نجيك نزرع فيك
حبة بيضه حبه سوده عين الديك

ختام العيـــد

أهل القرية مسلمون ، ولهم عيدان ، عيد الفطر وعيد الأضحى ؛ يسامح الكتاب أو الفقيه أولاده فيهما مسامحة طويلة ، تمتد إلى أسبوع أو عشرة أيام . وهذه فرصة حسنة للفقيه ، يجمع فيها « صرافة » العيد ، وهى قرش أو نصف قرش من كل ولد . وهى كذلك للأولاد ؛ فأنهم يلزمون أباءهم باقتراض هذه الصرافة ، وهم ينتظرون العيد ، لأنه موعد فكاكهم من أسر الكتاب ، و « استراحتهم من وجه الفقيه » ، كما أنه وقت لبس الجلاليب الجديدة ، وأخذ مصروف العيد من آبائهم .

إن الأولاد قد جمعوا « صرافة » العيد ، وهذا يوم الخميس آخر أيام الأسبوع الذين قبل العيد ، وقد أعلن الفقيه من قبل ، أن «صرافة» العيد ستكون يوم الخميس . ليس فى الكتاب حركة حفظ وتسميع ، وكتابة ألواح ! آخر يوم قبل العطلة ، لا بد أن يكون شبه عطلة . مضى ثلث اليوم ، ولم يغب عن الكتاب اليوم من اعتاد أن يغيب عنه من قبل ؛ فالأولاد جميعاً حاضرون ، وقد جلسوا فى صفوف منتظمة ، ليسوا مبعثرين فى الدهليز كما كانوا كل يوم . هم على استعداد لختام العيد ، وها هم أولاء قد توسطهم العريف الشيخ « أبو الفتوح » ، صوته حَسَنٌ بعضَ الحُسْن ، أخذ يتنحنح استعداداً لتلاوة «ختام العيد» ، يحدوهم فيردون عليه ، بصوت عال ، ونغمة تنم عن السرور .

ختام العيد ، مقطعات شتى ، تختلف وزناً ومعنى ، بقافية أو بلا قافية ، موزونة أو غير موزونة . هو كلام عذب ، يختلف بين ذكر الله ، وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأدعية مختلفة ، للفقيه والأولاد ،

وتذكير بالقبر والآخرة ، تأتى كلها فى أوزان متعددة ، وقواف متنافرة ، وصيغ متغايرة ؛ يعلو بها صوت الأولاد تارة ، ويغلظ فيها حيناً ، ويرق أخرى ؛ وقد تجمَّع ، على باب الكتاب ، أولادُ الحارة وبناتها ، ونساؤها ، يتفرجن على الأولاد ، وهم يختمون ختام العيد . استَمِعْ للاولاد يحرفون الكلم فى الحُداء ، فيقولون : كُمْ بالليل واذكر ربَّك . . . . . بدل قمْ الخ .

(١) هذا أول الأجزاء التى يتغنى بها العريف فيردون عليه :

قُمْ باللَّيْلْ واذكرْ ربَّكْ ... ربِّ العرشِ الوَحْدانى
واتْفكَّر فى دى الدنيا ... شرقى وغربى وابحارى
خلق اللهْ ميتْ ألف نبى ... خلَقْ نبينا العدنانى
وكلُّ نبيٍّ رحْنا لُهْ ... يقول « روح للمختارِ »
شِوَيَّه والمختار جانا ... وجهُه كيفَ الأقْمارِ
شفعْ فى الأمّهْ بأجْمَعْها ... واللى كفرْ راح النارِ

وأنت ترى بعض الألفاظ مسكناً فى غير مواضع التسكين ، وبعضها محركاً بحركات لا تقبلها العربية وإعرابها ؛ ولكن المعول على ما فى القلوب لا على الاعراب والبناء .

(٢) وهذا دعاء وتوسل بحرمة النبى صلى الله عليه وسلم ، أشبه بالدوبيت ، أو القومة ، أو المواليا ، فى تقسيمه وقافيته :

مولانا يا مولانا ... يا سامِعْ دعانا ... بحرمَةْ مُحمَّدْ ... لا تقطع رجانا
يا رجا كل الرجا ... يا عظيم المُرْتجَى ... عبدك الفانى الضعيف ... يرتجى منك النجا

(٣) وهذا مدح للنبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر لبعض معجزاته ، من قافية ووزن آخر :

النبيُّ الكريمْ السراج المنيرْ أحمد المصطفى سيد المرسلين
صلى الله عليهْ وعلى الصحابه أجمعين
ونصر ديننا وخفى المشركين ونبعْ لهْ الزّلال وروى المعطشين

(٤) وتلك أدعية مختلفة متعاقبة :

أولها : طلب الوفاة على الاسلام ، ثم دخول الجنة خالدين فيها :

اللهْ بجاهِ الحبيبْ توفّنا مسلمين وافتح لنا باب رضاك ندخل جنان النعيم
لا حساب ولا عقابْ فى الجنان مخلّدين

وثانيها : دعاء بإصلاح القلوب ، وقبول التوبة ممن يتوب ، مع طلب المغفرة :

يا علام الغيوب يا غفّار الذنوب أصلح فساد القلوب وتب على من يتوب
واغفر لنا أجمعين

وثالثها : دعاء بالسعادة ، والنجاة مما يُخاف منه ، مع تأمين الخائف :

يا عالِمْ بكل علومْ يا سامعْ دعا المظلومْ لا تجعل فى حضرتنا شقيًّا ولا محرومْ
يا خفِيَّ الألطاف نجنا مما نخافْ ربى آمن خوفنا يا الله آمن خوفنا

ورابعها : دعاء بشرح الصدور ، وتيسير الأمر ودعاء للأهل بالجنة مع الوجود بين أهل اليمين :

رب اشرح لى صدرى ويسّرْ لى أمرى
واجعل الجنّهْ لأهلى واجعلنا يوم الحشرِى
من أصحاب اليمين

(٥) هذا ذكر للفقيه فى الجنة حوله الأولاد ، ووصف للجنة ، وفيها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فتيهنا فى الجنهْ ونحنُ حواليه يسقينانحن نسقيهْ من أنهار الجنّه
علبْكْ يا داخل الجنه تبشرنا بما فيها فيها المسك والعنبر بيجرى فى أراضيها
محمدُ ساكنٌ فيها

محمد يابن عبد اللهْ يا قارى كتابَ اللهْ
عليك الحلّة الخضرا تفصلها على طولك
تخيطها بذكر اللهْ

(٦) ولم يفتهم ذكر الموت والقبر وما بينهما .

فإذا فرغوا من القطعة السابقة علت أصواتهم بالبيت :

عزَّ اللهُ وجلَّ الله ما معبودٌ إلا اللهْ

غدًا ننشال على الألواحْ وندخل بيتْ بلا مفتاح
وننسى الأهلْ والصُّلاحْ ويتجلَّى علينا اللهْ
عزَّ الله وجلَّ الله . . . . . .
غدًا ننشال على خشَبه وندخل بيت بلا عتبَه
وننسى الأهل والصَّحَبه ويتجلَّى علينا اللهْ
عز الله الخ
غدًا ننشال على تابوتْ وندخل بيت بلا عامود
وننسى الأهل والمولود ويتجلَّى علينا اللهْ
عز الله الخ
غدا ننشال على ورقهْ وندخل بيتْ بلا طبقهْ
وننسى العُصْى والفَلَقهْ ويتجلَّى علينا اللهْ
عز الله الخ

(٧) وتلك قطعة أخرى ، يتلوها دعاء بالجنة للولد وأهله : والفقيه وذويه ، حتى للجريدة والفلقة :

أشرقت الشمس علىّ ومصحفى بين يدَىَّ سألتهم يحملونى قبر النبى يوصلونى
قبر النبى مكه فاحهْ عليه يمامَهْ صياحهْ يا بختها يا هناها سبحان ربّ أعطاها
أعطاها مولاها أعطاها المرج الأخضر تمشى عليهْ وتتبختر معها عَلِى معها جَعْفر
معها النبىُّ المُطَهَّر

يا رب طهّر لى قلبى واجعل الجنـهْ لأهـلى
حتى أبى حتى جدّى حتى الفقى اللى علمَنى
حتى الحرْمهْ اللى سقتنى حتى الفلقَة اللى مدّتنى
حتى الجريدة اللى ضربتنى

(٨) وقد يصرح الأولاد بذكر الختم والختام، والدعاء لسيدنا مرة أخرى، فيقولون :

خَتَمْنا ختْمـة الأبرارْ وصلّينا على الشفيع المختارْ
وقُلْنَا يا عزيز يا غفّارْ أجرنا من عذاب النارْ
وافتح لنـا باب الجنهْ
غدا نتشَفّعْ ونقول :
سيدُنا غفـر الله لهْ باب الجنة مفتوحه لُه ٣مرات
غفر اللهُ لك يا سيدْنَا اللهم اغفرْ لك يا سيدْنا

(٩) ومن أدعيتهم :

يا رقِيبًا علينا أسلمنـا الأمر إليك ومن بَغَى علينا لا نشكو إلا إليك
نحن بالله عزُّنا وبالحبيب المُقرَّب بهما عزَّ قـدرُنا لا بجاهٍ ومنصب
ومن أراد ذلّنـا من قريب وأجنَبى سيفنا فيه قولُنا حسبنا اللهُ والنبى

(١٠) وهذا ذكر السيدة حليمة مرضع النبي صلى الله عليه وسلم :

حليمهْ يا حليمه يا مرضعـة نبينا قومى رضّعى محمد دا رضاعته غنيمه
بشراكى يا بشراكى سبحان ربّ أعطاكى أعطاكى مولاكى أعطاك النصر من عند الله

(١١) فإذا أتم الأولاد هذه الأدعية والعبارات، انصرفوا من الكتاب فى صفوف منتظمة وخرجوا من الحارة، مرددين العبارات الآتية :

يا كتّابنـا لا توحشـنا بُكرهْ نجيك نزرع فيـك
حبـه بيضـه حبـه سـوده عين الديـك

وفيما هم يرددونها ، يتسلل بعضهم إلى بيوتهم ، حتى ينصرفوا ، وموعدهم السبت ، بعد أسبوع العيد ، إن شاء الله .

وقد تعجب إذا ذكرت لك ، أن انصراف الأولاد بهذه الكيفية ، فى عطلة العيد ، واحتفالهم بها ، له نظائر فى الأمم المتمدينة . ويكفى لهذا أن أثبت لك مقالا كتبه الأستاذ كريم ثابت فى « المقطم » بتاريخ ١٨ من يونيه سنة ١٩٣٤ فى العدد رقم ١٣٨٠٧ عنوانه :

« بين الأستاذ والطالب » قال :

لما كنت فى چنيف فى الصيف الماضى ، قال لى سعادة على الشمسى باشا « غداً يُحْتفل بحلول العطلة الصيفية لتلاميذ المدارس الابتدائية » فقلت له « وكيف يكون هذا الاحتفال ؟ » فقال « سترى » .

وفى اليوم التالى ذهبت مع سعادته ، إلى مكتب الزميل ، الأستاذ على الغاياتى ، صاحب « منبر الشرق » . وبعد ما استرحنا فيه قليلا ، سمعنا صوت موسيقى كبيرة ، فقال الشمسى باشا « لقد دنا الموكب من هنا » ، فنهضنا إلى النوافذ ، فرأيت شرذمة من « البوليس » ، تسير فى الطليعة ، تتبعها « جوقة » موسيقية ، فثلاثة رجال بالملابس الرسمية ، يحيط بهم بعض حجاب البلدية ، بملابسهم المزركشة بالقصب . فقال الشمسى باشا « أرأيت هؤلاء الرجال الثلاثة ؟ إن الذى يسير فى الوسط ، هو وزير المعارف ، وأما الآخران فعضوان من أعضاء البلدية » .

ثم جاء موكب من التلاميذ ، من بنين وبنات ، وقد لبسوا ملابس العيد ، وحملوا الأعلام ، وسار معلموهم ومعلماتهم إلى جانبهم .

فقلت للشمسى باشا « وإلى أين هم ذاهبون ؟ » فقال « إلى حديقة الإصلاح ، حيث يقدم لهم الشاى والكعك ، على حساب الحكومة ، ثم يوزع وزير المعارف على كل منهم هدية صغيرة ، ويتسلمهم أهلهم بعد ذلك ، ويعودون بهم إلى بيوتهم » . فقلت « ومن أين بدأ الموكب سيره ؟ » فقال « من ميدان كذا » فقلت « وهل يقام هذا الاحتفال كل سنة؟ » فقال « كل سنة . وأنا ما برحت أذكر المواكب التى اشتركت فيها ، لما كنت أتلقى العلم فى هذه المدينة . إنهم هنا يبذلون كل ما فى استطاعتهم بذله ، لتوثيق الصلات بين الأساتذة والطلبة ، وتعزيزها ، لأنهم يرون فى ذلك شرطاً أساسياً لنجاح التعليم . أى أنهم يريدون أن يشعر التلميذ أن المعلم صديقه ، قبل كل شىء ، وان ما ينصح له به ، هو كلام صديق إلى صديق . ولا يخفى ما لذلك من وقع فى نفس التلميذ ! تصور أن وزير المعارف يسير فى هذا الموكب المؤلف كله من أولاد ! وهو يفعل ذلك ، ليحمل الأولاد على الشعور بأن جميع المسئولين عن تعليمهم ، أصدقاء لهم ، يشاطرونهم أعيادهم ويشتركون معهم فى أفراحهم » . اهـ

وأذكر بعدئذ ، أن أولاد المكاتب فى المدن ، كانوا ، إلى عهد قريب ، يخرجون من المكتب فى صفين ، ينشدون الأناشيد ويمرون جميعاً بمنازل الأغنياء منهم ، حيث تقدم لهم الحلوى ، والشراب ، ثم يقدم لرئيس المكتب ما تجود به الأسرة من المال ، لصرافة العيد . كان ذلك إلى العقد الأول من القرن العشرين ، حين كانت المكاتب ملكاً للأفراد لا للحكومة ، وقبل أن يقرر للمعلمين والرؤساء وظائف ثابتة ، وسبحان من لا يتغير !

نهاية الثقافة فى الكتاب

عنوان عريض ضخم ، وهو بلا ريب خداع ؛ يوهم أن منهج التعليم فى الكتاب متشعب ، يُعْنى بالثقافة ، ويرمى إلى تحقيق أغراض التربية الصحيحة ، فينتهى بالولد إلى سعة فى الاطلاع ، وغزارة فى العلم ، ورسوخ فى الخلق ، وبسطة فى الجسم !

ولكنى به ، غيرَ هذا كله أريد . أردت به أن أبسط لك — فى شخصى — حالة ولد الكتاب ، عقلياً وخلقياً وجسمياً ، عند ما يتم الدراسة فيه ، أو بعبارة أدق ، بعد أن يتم حفظ القرآن الكريم فيه ، بغض النظر عن مصدر ثقافته ، فإنه محسوب على الكتاب إلى أن يخرج منه ، وقد حفظ « الخَتْمة » .

كان الأولاد لا يغادرون الكتاب فى ذلك الحين إلا بعد بلوغ التاسعة عشرة ، وهى سن القرعة التى يُطلَبُ فيها الشبان للتجنيد . ولعلك تذكر أن كثيراً من القرويين كانوا يرسلون أبناءهم إلى الكتاب ، ليخرج الولد « بشرفه » منه ، أى أن يحفظ القرآن الكريم ، فيعفى من الخدمة العسكرية ، لأنه من حَمَلة كتاب الله . ومن أتم حفظه قبل هذه السن كان عليه أن يستمر فى الكتاب للتلاوة والتثبيت ، حتى يجتاز اختبار القرعة العسكرية .

ولقد كنت خارقاً للعادة إذ ذاك ، حين غادرت الكتاب إلى الجامع الأحمدى ، فى سن الحادية عشرة . ذلك لأن والدى كان يكرم الفقيه إكراماً ، ويشمله ببِرّه وخيره ، ويثيبه إثابة غير مألوفة ؛ فلا ينقطع إرسال

الهدايا إليه ، ولا تفوته مناسبة ، من ختام سورة أو تقدُّم فى الحفظ ، إلا أجزل له العطاء ، وخلع عليه الخلع ، وكساه أفخر الحلل عنده . يستحثُّه بهذا كله على الالتفات إلىَّ .

ولم تكن تقع آثار هذه العناية إلا على رأسى : فكان الفقيه يخصنى بالبقاء معه فى منزله ، بعد انصراف الأولاد عصراً ، حتى قبيل الغروب . ولا أنصرف منه إلا إذا احتاجت امرأته إلى إخلاء قاعتها ، لتدفئتها أو كنسها ، أو تنفيض فرشها ، أو ما أشبه ذلك .

(شكل ٩١) يمثل الولد مع الفقيه وامرأته

نعم ، كنت والفقيه فى قاعته ، كالنحل فى خليته ، لا يخرجنا منها إلا دخان الفرن ، تحميه امرأة سيدنا للتدفئة فى الشتاء . أما فى الصيف فكانت « أمى فاطمة » زوجة الفقى الصغير أو « أمى السيدة » زوجة الفقى الكبير تخترع شتى الوسائل للافراج عنى ، والافلات من مخالب الفقى ، وقد انفرد بى فى الكتاب ، ولم ينقطع عن إعمال الجرائد فى جسمى أثناء التلاوة أو التسميع ؛ لأنه كان كلما زادنى ألماً وضرباً أو تأديباً ، زاده أبى براًّ وشكراً .

وكانت امرأة الفقى، حين تعطف علىّ، وتحول بينى وبين طول المكث فى الكتاب، تتلقى فى نظير ذلك من البراطيل، ما لا يعلمه أحد من الأولاد. فقلما يفوتها «لقمة طرية» تخبز فى منزلنا، أو يرد إليه شىء من الفاكهة والخضر إلا كان لها منه نصيب، أحمله فى حجرى أو شيالتى، حتى يصل إليها سراً؛ فإما أن تظهر بعضه للفقى، أو توزعه على أولادها، بعد اكتفائها منه.

ولم يكفِ الفقيهَ حجزى عصرَ كل يوم فى الكُتاب، بل خلقه الله ليقطع علىّ لذتى من الإجازات الطويلة، التى كانت تمتد أسبوعا أو نحوه. ففى إجازة العيد، لم يكن ليُعفينى من القدوم إلى منزلنا إلا ضحية العيد، ثم يتردد علىّ يوميًا فيها، ويمكث معى حصة من الزمن ليست بقصيرة. غير أن حضوره لمنزلنا، كان أخفّ على نفسى من بقائى فى الكتاب، وإن خفف عنى فى الثانية وجودُ امرأته معنا فى كثير من الأحيان والأيام. أليس هو فى منزلنا، وصرختُه منى كافية لإزعاج والدتى! وهى وإن لم تقدر على إخراجى من كتّاب هـــذا الفقيه القاسى، لا تعدم شكوى لوالدى، وإن أصم أذنه من هذه الناحية، أو رجاء سيدنا فى التخفيف عنى، أو تقديم لقمة، أو غذاء، أو فطيرة، أو رقاقة، يلهى بها عنى وعن مضايقتى! وطالما بلغ به الغيظ فى منزلنا، مبلغاً كان يهددنى فيه بالقصاص إذا عدنا إلى الكتاب، حيث يجد من الزمان والمكان ما يساعده على الفتك بى.

ومن مظاهر تلك العناية أيضاً، أن اختصنى بالسماع، وأن يكون اختبارى فى الحفظ وغيره، أمامه هو، دون أى عريف من العرفاء!

وذلك تضييق ما كان أشده ، ومصيبة ما كان أعظمها ! فلم أجد فرصة للإفلات من الجلوس أمامه إلا نادراً ، إما لغيابه ، أو لانشغاله فى حديث مع زائر أو زائرة مهمة ، لأن شواغله عنى كانت قليلة جداً . لهذا كله كانت مدة إقامتى بالكتاب أقصر بكثير من غيرى .

ويسرنى أن أعترف بأن هـذا التضييق والتشديد ، وحجزى فى الكتاب بعد انصراف الأولاد ، وحضور الفقيه إلىّ فى دارنا أيام المسامحات ، وحرمانى التمتع بأوقات الفراغ ، كما يفعل الأولاد — كل هذا وإن كان قد أثر فى صحتى كثيرًا ، إلا أنه بعث فىّ روح الجدّ والميل إلى العمل كبيراً ، وجعلنى أنظر إلى أوقات الفراغ نظر استمتاع وراحة أوّلًا ، مع الأسف على قلة العمل فيها ثانياً ؛ حتى إنى كنت أحاسب نفسى دائماً ، عصر يوم الجمعة ، على ما قدمت من عمل خالد !

وإذا ساعدتنى الظروف ، وأسعدتنى الأوقات ، بالخروج من الكتاب مع الأولاد عصراً ، لسبب من الأسباب ، كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار ! هذا أبى يأمرنى بحراسة خلايا النحل ، من الزنبار الذى يفتك بها ،

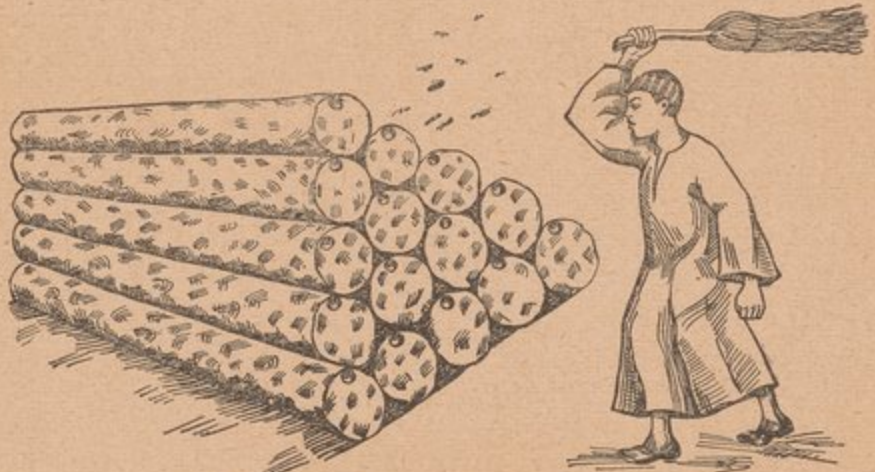

(شكل ٩٢) يحرس النحل ، من الزنابير ، بعد العصر

قتلاً وتخريباً ؛ فأقف ساعة أو ساعتين أمام الخلايا ، أراقب غزو الزنابير ، وفى يدى عرجون قديم من عراجين النخل ، أضرب به الزنبور فى الهواء ، أو ألطمه به على باب الخلية برفق ، حتى يخر صريعاً . وعلىّ بعدئذ أن أحتفظ بجثث القتلى منها ، برهاناً على اجتهادى ، وأدائى العمل ، بنشاط ويقظة .

وقد جَرّأنى ذلك على صيد بعض هذه الزنابير ، فى أوقات أخرى ، فأستخرج حُمَتها وأعلقها فى «ساقية» من قشر القصب الأجوف (الغاب)، وأعبث بها كما يلعب الأطفال ، وطالما احتفظت ببعضها فى ثنايا ملابسى . وأذكر أنى ذهبت إلى الكتاب يوماً ، فوجدت أبى بجانب الفقيه ، وتوقعت كل الشر من جلوسه معه . أمسك سيدنا بفخذى الصغيرة ، فى يده القوية الفاتكة ، وامتدت يده الأخرى بحكم العادة ، إلى شيالتى أو جيبى ، ولم يلبث أن أخرجها صارخاً مذعوراً ! إنه أحس فيها ببضع زنابير ، كان وجودها حينئذ ، غريباً ومضحكاً ، كما كان شفيعاً لى فى الخلاص من « عَلْقة » قد تتجاوز العشرين جريدة .

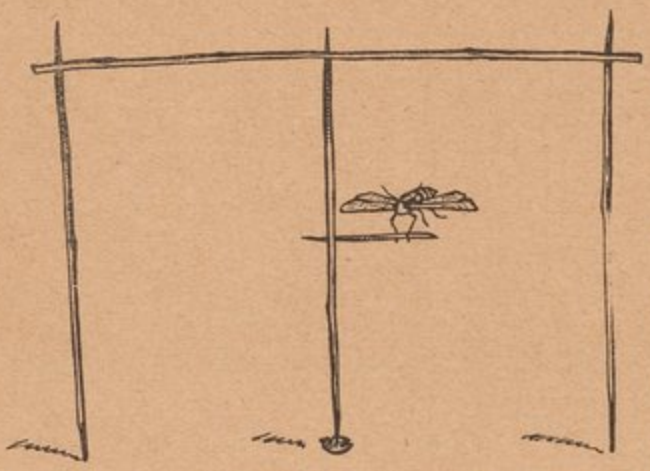

(شكل ٩٣) نموذج لساقية الزنابير

وما كان يفوتنى كسائر الأطفال وأولاد الكتاب ، أن أهاجم صغار

الطيور فى وكناتها ، وبغاثها فى عِشاشها ، وأفراخها فى إبان نشأتها ، فألهو بها أحياناً وأعبث ، أرأف بها ساعة وأقسو عليها أخرى ، وآونة أغذيها وأحاول أن أربيها ، حتى أقف على شىء من حياتها عفواً .

على أن العبث بالفئرة الميتة ، والثعابين المقتولة ، ومطاردة العظاء والسحالى ، وسام أبرص ، وغيرها من الهوام والحشرات — كان يصادفنا ذلك فى الكتاب أو فى الحارة والطريق ، أو فى بيوتنا ودورنا . أما القطاط والكلاب وحوادثهما ، وأما البقر والغنم وما إليهما ، وأما الدجاج والحمام وتربيتهما ، فكانت فى الطريق والمنزل والحقل ، لا تغيب عن أبصارنا ، ولا يفوتنا شىء من حياتها أو مشاهدها .

ما كنت لأعتقد حينذاك ، وأنا حبيس أمام خلايا النحل ، أن هذه دروس أولية فى مشاهدة مملكة النحل العجيبة ! وما كنت أقدر أن مشاهداتى لها والزنابير عند صيدها ، ستتحول فى نفسى يوماً ما ، كما يتحول الشهد فى جوف النحل ، إلى معلومات تنشر فى صفحات ، يحلو للقارئ التمتع بها ، أكثر مما يلذ الآكل من عسلها المصفى !

ما كنت أظن أن تلك الأوقات التى قضيتها فى شبه سجن ، وأن تلك المشاهد التى مرت بى ، وذلك العبث الذى كنا نعبثه ، سيكون عوناً لى ، بعد عشرين سنة ، يوم اشتغلت بالكتابة والتأليف فى « مشاهد الطبيعة » .

حقاً ، كانت الفرص كثيرة للدراسة فى كل مكان ، ولكن لا ينقصها إلا التوجيه ؛ وربما كان للحجر والمنع ، أبلغ الأثر فى هذا التوجيه ، إذ أحب شىء إلى الأطفال ما مُنِعوه !

على أن دراسة الأحياء المائية ، قد شقت لها طريقاً بين هذه الدراسات

« فى مشاهد الطبيعة » ! فقد كنت — كسائر الأولاد — مغرماً بصيد السمك ، فأضطر إلى استخراج ديدان الأرض طعماً لها ، وأجلس الساعات الطوال على شاطىء الترعة أو الجدول ، أرقبها وأرقب غيرها . كان أبى يزعم أن هذا من عمل الكسالى ، وأنه مضيعة للوقت يصرف عن الحفظ والدرس ، وقد فاته أن الحياة صيد ، والسمك رزق ، وكنت أراه من ألذ الأعمال ، ومحاولاته من خير المحاولات ؛ دروس فى الملاحظة والمثابرة ، والصبر ، والسكون ، والرضا ، ولكنها فى نظر الوالد عديمة النتيجة ! لهذا كانت مطارداته لى ، وهروبى منه ، أشبه بوقائع حربية يعمل كلٌ منا فيها حِيَله العجيبة ، ويقدح فكره الوقاد ؛ فأنا أخفى أدوات

شكل (٩٤) الولد مغرم بصيد السمك والوالد يطارده

الصيد فى مكان لا يعلمه ، وهو يبحث عنها ، ويقف فى طريقى فى وقت لا أتوقعه . وكثيراً ما فاجأنى مفاجآت يكاد يخلع من هولها قلبى ، ويمتقع لها لونى . وقد يشفع هذه المفاجآت أحياناً بشتائم ، أو رجم بالحصى

والمَدَر، إن لم يُتْبِع ذلك ببضع عِصِيّ تنزل على ظهرى. وقد لازمنى هذا الغرام بصيد السمك، إلى أن جاورت فى الجامع، فكنت أحِنّ إلى مجلسى على شاطىء «ترعة الديسة» مع زميلى «عطوة». ولقد أذكر ذات ليلة أن أبى أجلسنى أمامه، لاسمَعَه ما حفظتُ من متن «الرحبية» فى الفرائض، فتوقفت عن القراءة، لأنى نسيت البيت، وما أنسانيه إلاّ النوم يداعب عينى، والخوف من والدى المضطجع أمامى، فاستيقظ وهو يقول: قلْ: يا عطوه إطْعِم السُّنّاره جتك انت ومحمد غاره

وهو بيت من الشعر على نحو ما كنت أقرؤه.

هذا إلى ما كان الوالد يكلفنى إياه، من الأعمال الزراعية، كسقى الحرث وخل الزرع، وجنى الحصاد، وغيرها، مما كان له أكبر الأثر فى دراسة حياة النبات خاصة، وتربيتى عامة. غير أن نصيبى من هذه الأعمال لم يكن كنصيب غيرى من الأولاد، الذين لم يفكر آباؤهم فى إعدادهم لطلب العلم مستقبلاً، كما كان يقصد أبى. بل كانوا ساعد آبائهم فى زراعتهم، وعوناً لهم فى حقولهم ليلا ونهاراً؛ فهم فى حالهم على الضد منى، يعتبرون الكتاب عملاً إضافيا. لذلك كانوا أقوى منى جسماً، وأكثر مِرانة على العمل فى الحقول؛ لأن أعمالى القليلة فيها، كانت مدعاة للسخرية ومضرباً للمثل، فيمن يتناول من الأعمال، ما ليس من شأنه، أو ما لم يكن يحسنه، أو ما لم تُعدُّه لها الأيام.

نعود بك إلى أولاد الكتاب، وقد خرجوا عصراً، وأخذوا يتمتعون بمختلف الألعاب، دونى، إلا ما ندر، إذ كنت أشترك معهم فى بعض الألعاب اليسيرة الهينة، أو نتفرج على لاعبى العصا.

(شكل ٩٥) يلعبون بالعصا أو « الحطبة » ، وهى من ألعاب الفروسية قديماً

أما فى أول الليل، فإنى بعد العَشاء محبوس فى البيت، ولكنى أسمع الأولاد فى الحارة ، يجمع بعضهم بعضاً، بالسير فيها ، بالنداءات والأغانى المعروفة :

يا اولاد حارتنا ! توت توت ! انتو نصارى ! والا يهـــود !

تاكلوا إيه ؟ ناكل عجوه . تشربوا إيه ؟ نشرب قهوه .

أو قولهم : يا اولادى ! إيه يابه ! جتكو خروف ! احنا وانت . الخ

فأحتال على الخروج من البيت ،حيث الملاعب منصوبة ، وقد خرج الأولاد إلى الجُرُن ، إلا من أعياه التعب منهم فنام ، وكوّنوا حلقات لألعاب « الساقية ولصوص البهائم » و « محكمة الجنايات » و « النَّطة » و « طقطق الحجر » و « آه يا خَىّ » و « الطّرة » وغيرها .

أما الأقوياء منهم فيلعبون بكرة «الحكشة» أو ألعاباً عنيفة أخرى .

وأذكر أن موقفى منهم ، كان موقف المتفرج ، أكثر من مشترك معهم فى كثير من ألعابهم القاسية ، التى لا يتحملها جسمى الضئيل

شكل (٩٦) كرة « الحكشة » — الله لها !

تروزه ! بحر الجيزه ! وان عدّت ! على الله !

الناحل ، بقية حجز العصر ، وحراسة النحل ، وسوق الساقية ، وخل الذرة وعلف البهائم ونحو ذلك . وطالما كنت أفضل أن أنحاز لناحية البنات ، أشاهد ألعابهن من « الجُمَّة والآل » ، أو « جلوة العروس » ، أسمع أغانيهن العذبة .

شكل (٩٧) البنات يمثلن جلوة العروس وهن يغنين :

يا رب انا ابلغ مرادى عدد الـ . . حصا فى الأراضى ، يا !

يا صحن فضه رشيدى من إيد حبيبى لإيدى ، يا !

وكان لى صداقة — بريئة طبعاً — مع كثير منهن ؛ فزينب ، وزَنّوبه ، وكعب الخير ، وحفيظه ، كن يأنسن بوجودى ، بقدر ما ينفرن من غيرى ، من أولئك الأولاد الفظاظ . وقلما سلم واحد منهم من هجوه فى وجهه ، إذا اقترب منهن ، يهجونه بتلك الأناشيد التى كن يحفظنها ، ليُبعِدن بها الأولاد عنهن ، كقولهن :

جحش البنات حيفه حيفه حك « ديله » فى الليفه

جحش البنات حَفْرَك حَفْرَك حك « ديله » فى المفرك

وما أذكر أن موقفى منهن كان شاذاً ، أو أنهن كن يتضايقن بوجودى على مقربة منهن ، أتفرج على ألعابهن ! ولعل هذا الموقف ، وتلك المعاملة وذلك الخلق ، كان إرهاصاً لقضاء زمن طويل من حياتى ، بمدارس البنات ، إذ مكثت بها معلماً نحو ستة عشر عاماً (من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٣٢) حين نقلت إلى دار العلوم ، ثم عودتى إليهن ، فى معهد التربية للبنات ، الآن ، فى أواخر سنة ١٩٣٨

فلأترك الملاعب الآن ، وكذلك « السامر » ، وهو مسرح التمثيل فى القرية ، لأن والدى يبحث عنى ، وهو لا يريدنى أن أختلط كثيراً بهؤلاء الصبيان ، فى أوقات متأخرة من الليل . بل يجب أن أعود إلى المنزل ، لأداء اختبار فى الماضى ، أو تسميع سورة ، أو أقف أمام الجاموسة لأمى !

وإذا خلا لى الجو فى المنزل ، شاطرت أمى ومن معها ، من فقيرات الحارة ، بعض عملهن ، أو جلست للمشاهدة والمراقبة . نحن قبيل نصف الليل ، حيث إعداد العدة للخبز بعد العجن ، أو فى الفجر ، حين أستيقظ فى المنزل ، ووالدى فى المسجد يصلى ، فأشترك مع العاجنات أو المقرصات ، أو أراقب عمل الفطائر المنوعة ، أو أقوم برص

الأقراص والكعك، أو تخريطها، أو نقشها، قبيل أيام الأعياد والمواسم.

كانت لى مشاركة فى هذا، وفى غيره، من الأعمال المنزلية؛ بحيث لم يكن غريباً لدىّ، وأنا أنقد بعض دروس التربية العملية بمدرسة المعلمات بطنطا، أن أتكلم فى نقد درس عملى فى التدبير المنزلى، نقد الملمّ بالمادة، الواقف على أسرارها! كان ذلك بحضور معلمة المادة، وناظرة المدرسة، وقد اكتفينا به!

فلا تعجب، إذا شرحت لك عمل الفطائر الريفية المختلفة، أو إذا ذكرت لك نِسَب هذا الكعك، أو سردت لك عيوب هذا الخبز، أو محاسن هذا الطبخ، فقد تلقيت الدروس العملية فى ذلك كله عن والدتى رحمها الله.

وكثيراً ما كانت تكلفنى خبز رقاقات عند جارتها، أو حمل صينية الأكل على رأسى — إلى الدوّار كما يفعل بنات

شكل (٩٨)

هذا الرأس، الذى نقد آراء أوبرى ورو، وتعب من نصوص كابيتان وكولان، والذى شهد الخلاف بين الخطيب وابن عباد، وبين الامام وأبى يوسف — قد أعده لذلك كله من قبل، حمل هذه الصينية إلى الدوار أو المضيفة

القرية ! حقاً كان لها العذر فى ذلك ، فليس لها بنات يقمن بهذا ، وكنت أجد فيه لذة أو أُرْغَم عليه إرغاماً أحياناً . حببه إلىّ طاعتى لها ، ورغبتى فى الاطلاع على ما يدور حولى من أحداث ، حتى التافه منها ، كالعجن والخبز والطبخ ونحوها .

ولقد كان لى بالمنزل ، غير هذا ، عمل مهم ، هو استقبال «المحلاويين» أو « العصايبية» . ومن هم أولئك الضيوف ؟ هم تجار متنقلون ، من المحلة الكبرى ، كانوا يتجرون فى الحرير المحلى ، أو «المحلاوى» ، وأهم مصنوعاته فى ذلك الوقت « العصايب » أو عصابات الرءوس ، التى كان القرويات

شكل (٩٩)
العصبة المحلاوى العصبة !

يمثل ربع الخمار أو « العصبة » ومن الأرقام التى حوله تجد مقاسه الطبيعى كما يأتى :

طول الخمار كله ٣٫٠٦ متر
« الأهداب من الناحيتين ١٫٢٠ «
فيكون طول الجزء المنقوش ١٫٨٦ «
فى وسطه رقعة سوداء طولها ٠٫٨٦ «
وعرضها ٠٫٦٢ «
فوقها وتحتها جزء طوله ٠٫٥٠ «
فى عرض الخمار كله وهو ١٫٢٤ متر
وعلى جانبيها جزء عرضه ٠٫٣١ «
فى طول الرقعة أى ٠٫٨٦ «

فتكون مساحته كلها ٣٫٠٦ × ١٫٢٤ متر
وبعد حذف الأهداب ١٫٨٦ × ١٫٢٤ «
والرقعة السوداء ٠٫٨٦ × ٠٫٦٢ «

يختمرن بها حينئذ . وقد اختفت الآن هذه التجارة ، وتلك الصناعة ، كما اختفى كثير غيرها من الصناعات البلدية !

هؤلاء الضيوف ، أو « العصابية » اتخذوا منزلنا محطا لرحالهم ، لأنهم كانوا يتسامعون بالأمان عندنا ، وهم تجار ، معهم بضاعتهم أوثمنها . كان الواحد منهم يَفِدُ إلى دارنا ، ولم يكن قد حلّ بها من قبل ، فيسلم على أهل المنزل ، ويحيي أفراد الأسرة ، ذاكراً أسماءهم رجالاً ونساء وصبياناً ؛ قد لقنه سابقُه تلك الأسماء فوعاها فى ذاكرته .

فإذا نزل أحدهم بساحتنا قبيل الغروب ، قابلتُه وسلمتُ عليه ، وقُدْته إلى الزريبة ، كى يقيد راحلته . وبعد أن يحط عنها الرحل ، أو « الخُرْج » أقوده إلى « قاعة التبن » ، حيث يملأ المخلاة ، أو يعلف دابته ، ثم إلى المَنْظرة حيث يكون المبيت ، فأفرش لهم الحصير أو « القياس » ، يرتبون عليها متاعهم . ثم آتى بالموقد ، والوقود ، والبن والمصحن ، ومسوقته ، وبقية أدوات القهوة ، وأشرع فى عمل القهوة ، فأطحن البن أو أصحنه وإذا ما تم إعدادها ، وأراد أحدهم صلاة المغرب فى المسجد أو صلته إليه ، أو أُحضِرُ الوَضوء للكبار المسنين منهم ، فيتوضئون فى المنزل ويؤدون الفريضة فيه .

قد آن وقت العَشاء ، وقد أعدّته الوالدة ، حينما كنت مشتغلاً بإعداد القهوة ، فأدخل إلى المنزل ، وأحضر لهم الصينية ، وعليها العَشاء . فإذا فرغوا من العَشاء ، صلوا العِشاء ، وجلسوا للسّمر ، فأسمر معهم بقدر ما يسمح لهم عمل اليوم السابق . أسمع من عمى « اسماعيل صقر » وأخيه

« محمد صقر » و « عبد العظيم » ابن اختهما ، أخبار رحلتهم ، وحكاياتهم عن البلاد التى أتوا منها ، أو مروا بها ، وعن قطاع الطريق ، الذين اعتادوا نهب هؤلاء التجار أو قتل بعضهم ، كما أسمع شيئاً عن المحلة الكبرى ،

شكل (١٠٠) بعد إعداد القهوة يصغى إلى حكايات « العصايبية » .

بلدهم ومقر صناعة « العصايب » التى يبيعونها . وكل هذه معلومات يلذ لطفل مثلى سماعها ، لأنها فى نظره عوالم أخرى مجهولة !

أليس محظوراً علىّ أن أغادر قريتنا ، حتى إلى سوق القرية المجاورة ، أو إلى مولد الشيخ الولىّ بها ، وقد اعتاد غيرى من الأولاد التردد عليها ؟ !

هذا وإن إقامتى فى القرية طفلاً ، ومنعى من السفر خارجها صغيراً ، حبَّب إلىَّ الرحلة والأسفار ، إلى المدن والبلاد كبيراً ، حيث أطفئ نار الشوق إلى مشاهدة العالم ، وإن لم أغادر القطر المصرى للآن .

أترك الآن تمثيل دور المُضيف — وكان هو وغيره ، فرصة سعيدة أفر فيها من الاختبار أمام والدى — إلى دور آخر ، أكلف فيه ، كما

شكل (١٠١) يحمل إلى عمته ما نابها

يكلف غيرى من الصبيان والبنات، حمل شىء من الطعام، فى أيام المواسم، إلى الفقيه، أو إلى بعض العمات والأقارب، أحمل لهن ما نابهن أو « منابهنّ » فى دجاجة أو وزة، أو طبيخ أو غيره؛ كما كنت أحمل زكاة الحبوب إلى بعض الفقراء والمساكين فى القرية. كان الوالدان يتعمدان ذلك، رغبة منهما فى غرس حب الإحسان، وصلة الأرحام، فى نفسى.

ولست أخفى عنك، ما كنت أجده من لذة فى تلك الأعمال المنزلية، ومثابرتى على خدمة والدتى فيها، إلى سن متأخرة؛ أفعل ذلك تعبّداً بخدمتها، ولأضرب المثل لأولادى، فى وجوب رعاية الوالدين، وفى عدم الترفع عن مثل هذه الأعمال، مهما ارتفعت درجة الإنسان عنها. وكنت لا أرى غضاضة، بعد أن جاوزت الثلاثين، أو أشرفت على الأربعين، فى أن أقوم بمساعدتها فى عملها، كما كنت أفعل صغيراً، وهى تتفاءل بذلك عاماً بعد عام، وتتمنى من الله العودة، كل سنة ونحن طيبون بخير! وكانت لا تزال تذكر خدماتى، وتذكر بجانبها حادثة وقعت لى إبان خدمتها، إلى قبيل وفاتها رحمها الله (فى سنة ١٩٣١). فبينما أنا أمام الجاموسة، وهى تحاول درّها، إذا بها أتت حركة أزعجتها

« فأفرغت همّها فىّ » ، بمدرة قذفتنى بها فى جنبى من الغيظ ، فتقبلتها بصدر رحب ، مع البشاشة والابتسام . كانت ، رحمها الله ، تذكر

شكل (١٠٢) خذها فى جنبك خذ !

هذه الحادثة بشىء من السخط على معاملتها هـذه لابنها وهو رجل ، ولكنها كانت أحلى ذكرى ، تمثل حنان الأم ، وحسن الاعتذار ، عن ثورتها فى غضبها !

شكل (١٠٣)

علمت فيما مر ، أن بعض الأولاد كانوا يشتغلون بضفر الخوص ، وغزل القطن ، ونسج السَّكبة أو الشُّبَيْكة ، وغيرها . وأذكر أن كان لى فى هذا الباب محاولات ، كان بعضها مثاراً للضحك والسخرية ، كما كان مثاراً للإعجاب ، ولا يزال تاريخها فى المنزل والأسرة معروفاً : فالمقطف الأبيض الأثرى ، وكيس النقود المنسوج من خيط كمبردج (الكمبريت) ، والكيس المطرز بالحرير تطريز الظرافة ،

وسِنَّة الشغل المحفوظة عندى ، كل هذا شاهد بمشاركتى فى هذه الأشغال اليدوية !

ولما تقدمت بى السنون فى الكُتَّاب ، كنت أمتاز بتلقين الفقيه خطبة الجمعة . حل هذا الفقيه محل والدى ، فى أن يخطب المصلين يوم الجمعة ، فكان مضطرّاً إلى حفظها كل أسبوع عن ظهر القلب . كنت أنا المقرئ له ، وكانت دواوين الخطب مشكولة ؛ فلم أغادر الكتاب ، بعد إتمام حفظ القرآن الكريم ، حتى مرنت على المطالعة العربية ، فى الكتب غير المصحف الشريف . وقد ساعد فى هذا أيضاً ، حفظ كثير من متون العلوم ، وتكليف والدى إياى قراءة شىء من الكتب الأدبية والأخبار أمامه . كان والدى — رحمه الله — يفعل ذلك قصداً ، لتدريبى على المطالعة ، وتحبيب الكتب لدىّ ، وكان لذلك أثره الحميد ، حينما أصبحت من طلبة العلم الشريف . وإن نسخة مقامات الحريرى ، التى كنت أقرأ له فيها ، لا تزال محفوظة عندى ، وإن عبثت الأيام بأعداد صحيفة « الفيوم » التى كان مشتركاً فيها فى ذلك الوقت .

ولم يَفُتْ والدى أخيرًا ، أنه كان يشجعنى على قراءة « رُبْع » فى الدّوار ، فى محفل عيد أو نحوه ؛ يريد بذلك خلق روح الإقدام عندى ، وتسهيل اقتحام المجالس ، ومواجهة المواقف الاجتماعية . ذلك بأنه لم يكن من الأدب ، فى ذلك الحين ، أن يجالس الولد أباه ، أو يجتمع وإياه فى مجلس كبير ، وألا يجلس إلا حيث يؤمر أو يسمح له ! فكان من العسير على مثلى أن يخوض تلك المجالس ، لأنه كان يتعثر فى أذيال الخجل وهو داخل إليها ؛ فهو رحمه الله كان يريدنى

الخروج على هذا المألوف ، مع تمسكه الشـــديد بمراعاة آداب ذلك الوقت . وكان لذلك خير الأثر فى شجاعتى الأدبية ، جزاه الله عنا خير ما يجزى به عباده المخلصين ، ورحمه رحمة واسعة ، آمين .

هذا طرف من ثقافة أولاد الكتاب فى ذلك الحين ، ويجدر بنا هنا أن نلخص أثرها ، بعد شطرها شطرين :

(الأول) يمثل النتائج السيئة ، و (الثانى) للآثار الحسنة .

فأما الناحية الأولى فنذكر منها :

(١) قسوة الفقيه فى التأديب ، أو المعلم على المتعلم ، قسوةً لا يستطيع القلم تصويرها ، ولا يدريها إلا من قاساها — أدّت إلى تنفير الأطفال من الكتاب ، والهرب منه ، أو التمارض ، أو إحداث الولد تشويهاً فى جسمه . وكان لبعض كبارهم خبرة بذلك يُسْدُونها للصغار منهم ، وكثيراً ما فقد أحدهم بصره ، أو أحدث عاهة بجسمه ، من جرّاء ذلك . كما أن كثيرًا من العاهات بأجسام الأطفال ، بعد خروجهم من الكتاب ، كان نتيجة هذه الشدة فى التأديب ، والعقاب بلا حساب . هذا إلى أنها كثيرًا ما كانت منفرة عن التعليم ، دعت إلى فرار كثير من معاهد العلم فى ذلك الوقت ، وإن خلّفت شيئاً من المهابة والاحترام للفقيه .

(٢) كان لهذه الشدة فى المعاملة ، والقسوة فى التأديب ، أثرها فى تعويد النفوس الذل والاستعباد ، والارتضاخ للظلم والاضطهاد ، وإن كان لذلك « ردّ فعل » فى حياة بعض الأولاد ، عند ما صاروا رجالا !

(٣) أما الإهمال الصحى ، فى الجلوس ، والاختلاط ، وشرب الماء ، ونظافة الملبس والمكان ، والضوء والهواء ، فهو فى غنى عن التنبيه إليه ؛ ولو لا مناعة صحية متينة من الأطفال لهلكوا .

(٤) وأما الحفظ بدون فهم، وأما سوء خط أولاد الكتاب. فكان كلاهما مضرب المثل، عنواناً للتعليم فى الكتاب.

(٥) حصر المعلومات فى دائرة ضيقة، هى حفظ القرآن الكريم وتجويده فقط، بدون الإلمام بشىء من العلوم الأخرى، إلا ما كان يصل إلى الأولاد عفوًا من البيئة أو المحيط.

(٦) إضاعة وقت طويل من عمر الطفل، نتيجة سوء طرق التعليم.

وإذا نحن صرفنا النظر عن هذه الهنات الهينات من السيئات، تجلت أمامنا محاسن شتى، نذكر منها:

(١) التعلم فى الكتاب، أدى بالأولاد إلى تكوين أنفسهم وشخصيتهم، وجعلهم لا يعتمدون على غيرهم؛ وكان السر فى نبوغ كثير من عظماء الرجال الذين تلقوا دراستهم الأولى فيه.

(٢) بث روح المهابة والاحترام، للمعلمين والمؤدبين، والشيوخ والصالحين، والعلماء والصوفية. وقد رأيت فى صفحة (٨٥) كيف ذكر اللص «سيدنا» وهو فى غيابة الجهل، وحمأة الشر.

(٣) غرس مبدأ الإحسان فى نفوس الأولاد، للفقيه وأهل بيته، وللفقراء والمساكين؛ وكذلك صلة الرحم.

(٤) غرس المبادئ الدينية، بالتردد على المسجد، ومساعدة الفقيه أحياناً، فى كنسه وملء ميضأته.

(٥) فى الكتاب تربية بعض الغرائز والقوى: كالحافظة، لحفظ القرآن الكريم وتلاوته. وكالملاحظة، لما رأيت فى قياس الزمن بالظل

ونقط الشمس، لندرة الساعات . وكحب الاطلاع ، بدرس العوالم البرية والمائيـة ، ودرس « مشاهد الطبيعة » عامة .

(٦) تنمية الروح الاجتماعى عند الأولاد، كما رأيت فى عمل «الغَدْوة» أو الحبر ، وأكلة الترمس ، واستحضار أدوات التدفئة ، وفى الألعاب المنوعة المختلفة وقد رأيت فى حروبهم صورة مصغرة للوطنية والقومية .

(٧) اعتماد الولد على نفسه فى تعلم كثير من الفنون والصناعات ، كالكتابة والقراءة ، وخياطة الثياب ، وضفر الخوص ، ونسج الخيط وشبكه ، وعمل المداد وغيره .

(٨) كان لرداءة طرق التعليم، فى الكتاب ، أحسن الأثر فى تعويد الأطفال الاستقلال بالرأى ، وتحصيل العلم بالتعب والمشقة ، حتى يكون أثبت وأرسخ . فإن سعى الطفل وراء البحث عن الحقيقة ، يكون أدعى للاحتفاظ بها ، أكثر مما لو كانت تقدم إليه سهلة هينة . على أن التعليم الجيد ،ذا الوسائل الممهدة ، كالأكل الناعم الطيب ، يضر بعقل الطفل ، ويدعو إلى ضعفه ، كما يؤثر ذلك الطعام فى ضعف المعدة .

وذلك يؤدى إلى محبة العمل عند الأطفال ، وسعيهم وراء تحصيل المعلومات بالمشاهدة ، ودراسة مشاهد الطبيعة .

(٩) لم يكن التعليم بالكتاب ، حائلاً بين الولد ومساعدة أبيه فى الحقل ، أو تناول شىء من الصناعات الرائجة فى ذلك الوقت .

(١٠) هذا إلى ما رأيت من تكليف الولد أعمالاً تدعو إلى علمه بأساليب الحياة ، وتعمل على تكوين الرجولة عنده .

الكتاتيب التابعة للنظارة لغاية ٣١ من ديسمبر سنة ١٨٩٨

(× الكتاتيب التى أصلها مدارس وحولت)

عدد	اسم الكتّاب	الجهة الموجود بها	عدد	اسم الكتّاب	الجهة الموجود بها
١	كتّاب أحمد أغا مناو	شارع السروجية	٢٩	كتّاب السيدة عائشة النبوية	السيدة عائشة النبوية
٢	« عبد الرحمن كتخدا	الأزهر	٣٠	« جوهر اللاله	درب اللبانة
٣	« « «	محل قايتباى بالأزهر	٣١	« السلطان مصطفى	شارع الكومى
٤	« على أغا دار السعادة	السيوفية	٣٢	« إبرهيم أغا عزبان	كوم الشيخ سلامه
٥	« عبد الكريم البرمونى	الجمالية	٣٣	« قسماس الاسحاقى	الدرب الأحمر
٦	« بين القصرين	النحاسين	٣٤	« خليل أغا مستحفظان	شارع الخيمية
٧	× بلبيس	بلبيس	٣٥	« خان جعفر	شارع خان جعفر
٨	× بولاق مع قسم العميان	بولاق	٣٦	« خوند بركه	« باب الوزير
٩	× شيخون «	شيخون	٣٧	« قايتباى الچركسى	« تحت الصور
١٠	« داود باشا	قواوير	٣٨	« قايتباى	المجاورين
١١	« الأشرف	الاشرافية	٣٩	« كمش بعا الناصرى	شارع شيخون
١٢	« الشيخ مطهر	الخردجية	٤٠	× مصر القديمة	مصر القديمة
١٣	« الدشيشة مع جوهر اللاله	الفحامين	٤١	« مراد باشا	الموسكى
١٤	« الأهوانية	الجودرية	٤٢	« أوده باشا	المبيضة
١٥	× الفشن	الفشن	٤٣	« رضوان بك	الهدارة بعابدين
١٦	« الجمالى يوسف	الحمزاوى	٤٤	× رشيد	رشيد
١٧	« الغورى	قبة الغورى	٤٥	« رحبة عابدين	حارة شق الثعبان
١٨	« الحبانية مع الست آمنة	الحبانية	٤٦	« سيدى على البكرى	الرويعى
١٩	× الابراهيمية	الابراهيمية	٤٧	« « « الرويعى	شارع الرويعى
٢٠	« الفيسونى	درب الأغوات	٤٨	« سنان باشا	شارع الحدادين
٢١	« الكور عبد الله	شارع النبوية	٤٩	« سيدى كمال	الحسينية
٢٢	« الفزلار	« السيوفية	٥٠	« سيدى على البيومى	«
٢٣	« الرضوانية	قصبة رضوان	٥١	« سليمان جاويش	باب الشعرية
٢٤	« الرماح	خلف جامع الرفاعى	٥٢	« « «	بين الصورين
٢٥	× السنبلاوين	السنبلاوين	٥٣	× طوخ	طوخ
٢٦	× السيدة زينب	السيدة زينب	٥٤	« يوسف أغا الحبشى	الدرب الأحمر
٢٧	« السيدة عائشة السطوحية	أمام باب الفتوح	٥٥	« يوسف سعيد	شارع الحدادين
٢٨	« السلطان أبو العلا	حارة أبو العلا			

كلمة تاريخية ختامية[1]

ذلك الكُتاب ، الذى عنينا بإثبات هذه الصحيفة فى تاريخه ، كان المدرسة الأولية السائدة فى القطر المصرى ، إلى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، وقد بلغ عددها فى ١٨٩٧ م ٩٦٤٧ كتاباً بها ١٨٠٥٤٧ تلميذاً وهى الكتاتيب الحرة الأهلية .

وقد كان بجانبها ٥٥ كتاباً أخرى ، تديرها نظارة المعارف العمومية ، (ترى أسماء هذه الكتاتيب وأماكنها فى الصفحة المقابلة)

منها ٤٥ من بقايا كتاتيب الأوقاف التى أحيلت إدارتهـــا على النظارة سنة ١٨٨٩ ، وعشرة كتاتيب أصلها مدارس ابتدائية ، حولت سنة ١٨٩٧ إلى كتاتيب ، لعدم الإقبال على هذه المدارس .

كانت الكتاتيب العشرة الأخيرة تمتاز عن كتاتيب الأوقاف بحسن مواضعها ، وزيادة مرتبات معلميها ، وجودة استعدادهم ، لأن أصلها مدارس بطبيعتها . أما الكتاتيب التى تسلمتهـا النظارة من ديوان الأوقاف ، فقد تعهدتها بالرعاية والعناية ؛ فأخذت فى تنظيمها ، وإصلاح أمكنتها ، والتفتيش عليها طبياً وعلمياً ، ورفع مستوى التعليم فيها . فوضعت لها خطة دراسة تشمل ما يأتى :

ا — الديانة والتهذيب : القرآن الكريم وقواعد الإسلام .

ب — اللغة العربية : المطالعة والإملاء والإنشاء البسيط .

---

(١) مراجع هذه الكلمة هى :

(١) تقرير « المرحوم » حسين رشدى « باشا » المفتش بنظارة المعارف ، المقدم لجناب السكرتير العمومى بتاريخ ٢٦ من يناير سنة ١٨٩٩ طبع ببولاق سنة ١٨٩٩ (٢) نبذة تاريخية عن التعليم الالزامى والتعليم الأولى بجميع أنواعه من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٩٣٦

(٣) تطورات التعليم الأولى فى الأعوام المائة الماضية (لمراقبة التعليم الأولى سنة ١٩٣٧) وغيرها

حـ — الحساب : القواعد الأربع الأصلية للأعداد الصحيحة.

ء — الخـــط : الثلث والنسخ .

كما أنها أخذت تمتحن الفقهاء والعرفاء فى الحساب والخط ، وصارت تشجع النابهين منهم بزيادة مرتباتهم ؛ فبعد أن كانت بين ٥ قروش و ٢٠ قرشاً أسبوعياً ، غير الإتاوات التى كانوا يجبونها من الأطفال كل اسبوع ، من النقود والحبوب ، صارت فى سنة ١٨٩٩م ، ٤٠٠ مليم ١ جنيه للفقيه ونصف ذلك للعريف . وفى سنة ١٩٠٨ رفعت مرتب الفقيه إلى جنيهين ، والعريف إلى جنيه .

ومن سنة ١٨٩٥ ابتدأ تعليم البنت فى الكتاتيب ، فوجد فيها ١٣٩ بنتاً ، ووجدت أول معلمة بوظيفة عريفة ، ثم أخذ عدد البنات يزداد بالتدريج فيها .

وفى ديسمبر من سنة ١٨٩٧م وضعت النظارة لائحة ، لامتحان طالبى وظائف الفقهاء والعرفاء ، فى الكتاتيب التابعة لها ، وجعلت الاختبار تحريرياً فى اللغة العربية (الإملاء والإنشاء) ، والحساب (القواعد الأربع الأصلية والكسور والأوزان والمقاييس والنقود المستعملة فى مصر) ، والخط (ثلث ونسخ ورقعة) [المادة الرابعة] وشفاهياً فى القرآن الكريم ، وقواعد الإسلام ، والمطالعة ، والحساب العقلى ، وإلقاء درس بعد تحضيره [المادة السادسة] .

ومن سنة ١٩٠٢ أعدت لهم أماكن فى مدارسها الأميرية ، يتلقون فيها دروساً خصوصية ، فى يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع ، إلى أن ألغى امتحان الفقهاء والعرفاء سنة ١٩١٠ بعد اتساع نطاق مدارس المعلمين .

أما الكتاتيب الحرة الأهلية ، التى منها كُتّاب القرية ، فقد عملت النظارة على رفع مستوى التعليم فيها ، وتشجيع أربابها بإعانة مالية ، تساعدهم على إصلاح أماكنها ، وتوفير أمتعتها ، وتنمية معارفهم . فوضعت فى ديسمبر من ١٨٩٧م لائحة لهذا الغرض ، وأدخلت فى خطة الدراسة — علاوة على التعليم الذى أُسّس الكُتّاب من أجله — المواد الآتية:

اللغة العربية : المطالعة والإملاء — درسان فى اليوم .

الخط : الرقعة والثلث والنسخ — درس واحد فى اليوم .

الحساب : القواعد الأربع الأصلية — درس واحد فى اليوم

[المادة الثانية — فقرة رابعة]

أخذت النظارة تُعينُ هذه الكتاتيب ، بعد أن أدخلتها فى حظيرة التفتيش ، وصار عدد الخاضع منها للتفتيش يطرد فى الزيادة ، بعد أن تبين الفقهاء أنها لا تبغى لهم إلا الخير ، وكانوا قد أساءوا الظن مبدئياً بما تريده النظارة من معونتهم وإرشادهم ، فكان فى سنة ١٨٩٨ م ٣٠١ كتاب بها ٧٥٣٦ تلميذاً الى أن صار فى سنة ١٩١٠ م ٣٦٤٤ كتابا بها ٢٠٢٠٩٥ تلميذاً وتلميذة .

وفى سنة ١٩٠٥ استنهضت همم الأهلين ، ووجهت عنايتهم إلى هذه الكتاتيب ، فقامت فى البلاد نهضة كبيرة ، لإنشاء أماكن جديدة صالحة لها ، وحبست الأوقات على بعضها ، فزاد عددها زيادة كبيرة ، وأدخل عليها كثير من التحسينات ، فكانت نواة صالحة لكثير من مدارس مجالس المديريات فيما بعد .

ولما أنشئت مجالس المديريات ، من سنة ١٩١٠ ، شاركت النظارة فى إعانة هذه الكتاتيب حتى سنة ١٩١٣ ، ثم استقلت المجالس بذلك ، من سنة ١٩١٤ ، فيما عدا مديرية أسوان وكتاتيب المحافظات .

ومما يلحظه القارئ أن سنة ١٨٩٧ م أو سنة ١٨٩٨ كانت مبدأ انقلاب أو إصلاح فى التعليم الأولى ، وهو الوقت الذى تركت فيه الكُتَّاب إلى الجامع الأحمدى .

وليس يعنينا ، بعد الإشارة إلى مبدأ الإصلاح الذى أُدخِل على التلعيم الأولى أو الكتاتيب ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، إلا أن نعرض بعد ثلث قرن ، حينما بدأتُ أفكر فى تسجيل تاريخ الكُتَّاب ، ما فى القطر المصرى ، من المدارس الأولية المنوعة ، حتى نرى طفرة هذا التعليم فى تلك الفترة .

وستجد أن جميع هذه المدارس ، على اختلاف أنواعها ، صورة مكبرة لتلك المحاولة ، التى بدأتها النظارة فى سنة ١٨٩٧ م فهى تدور حول إعداد المعلم والمعلمة ، للتدريس بالمدارس الأولية ، وحول توجيه التلميذ والتلميذة فى تلك المدارس ، وحول ترقية معلومات التلاميذ والطلاب ، فى تلك المعاهد الأولية

وهاك أصناف المدارس الأولية ، وعددها ، نقلا عن إحصاء الوزارة للمدارس فى سنة ١٩٣٠ :

٢٥ مدرسة من المدارس الأولية للمعلمين . وأول مدرسة منها عبد العزيز لمعلمى الكتاتيب سنة ١٩٠٤ ثم مدرسة الفيوم سنة ١٩٠٥ ومدرسة قليوب سنة ١٩٠٦ والمنصورة سنة ١٩٠٧ والزقازيق سنة ١٩٠٩ م. وفى سنة ١٩٢٥ أخذت الوزارة فى إنشاء المكاتب العامة ، فبلغ عدد

مدارس المعلمين فى ١٠ اكتوبر سنة ١٩٢٦ م ٢٥ مدرسة ، عدا ١٩ من الأقسام الليلية للمعلمين .

و ١٧ مدرسة من المدارس الأولية للمعلمات . وأول مدرسة منها ، معلمات الكتاتيب ببولاق سنة ١٩٠٣ وكانت طالباتها يؤدين امتحان الفقهاء والعرفاء ، أسوة بالذكور ، حتى سنة ١٩٠٩ ، حين طالت مدة الدراسة بها ، وتغير نظام منح الشهادات . وقد أنشأت مجالس المديريات بعض مدارس المعلمات ، وقامت الوزارة بإيجاد بعض المدارس الأخرى حتى وصلت إلى ١٧ مدرسة .

و ١٣ مدرسة من المدارس التحضيرية للمعلمين الأولية . أول إنشائها سنة ١٩٢٧ — ١٩٢٨

و ١٩ من المدارس الأولية الراقية للبنات . أول إنشائها سنة ١٩١٦ والمدرسة الأولية الراقية للبنين . أول إنشائها سنة ١٩١٦

ومدرسة المعلمات الأولية الراقية . فى سنة ١٩١٦ أنشأت الوزارة قسما إضافيا ، لتعليم فرق الأطفال بمدرسة المعلمات الأولية ببولاق ، ثم تدرجت فى تنمية هذه الأقسام الإضافية ، حتى أصبحت أربعة :

١ — للتعليم العام ٢ — لتعليم الأطفال ٣ — للتدبير المنزلى

٤ — للتخصص فى تربية العميان . ثم خصصت فى النهاية مدرسة المعلمات الأولية ببولاق لهذه الأقسام ، وسمتها مدرسة المعلمات الأولية الراقية .

هذا عدا ٣٦٣ مدرسة أولية تديرها الوزارة ، من المدارس القديمة التى أشرنا إليها ، ومدارس مجلس بلدى الاسكندرية ، ومصلحة السكك الحديدية ،

وخفر السواحل ، ومدارس مشروع تعميم التعليم الأولى فى سنة ١٩٢٤

وغير ١٥٥٧ مدرسة أولية للتعليم الإلزامى، من المدارس التى بدأت الوزارة فى إنشائها من سنة ١٩٢٥ وأسمتها فيما بعد مكاتب عامة .

يضاف إليها ٢٨٦٨ مدرسة أولية تفتشها الوزارة ، وتعين بعضها ، هى أو مجالس المديريات ، وتدير البعض الآخر هذه المجالس ، أو هى تابعة لمصالح أخرى، كوزارة الأوقاف ، أو مصلحة السجون ، ومصلحة الموانى والمنائر ، ومصلحة الحدود ، ومصلحة الأملاك الأميرية ، أو لحكمدارية « بوليس » الاسكندرية ، أو للأوقاف الخصوصية الملكية أو هى تابعة لشركات وأوقاف أهلية ، كشركة الملح والصودا، أولأوقاف سلطان باشا ، أو للجمعية الخيرية الإسلامية .

و ٢٤١٧ مدرسة أولية غير خاضعة لتفتيش الوزارة .

وأخيراً ٥١٣ قسماً ليلياً لتعليم العمال ، مما بدأت الوزارة فى إنشائه سنة ١٩٢٢ .

وإذا عددنا رياض الأطفال من التعليم الأولى ، أضفنا إلى هذه المدارس ٢٤ مدرسة ، منها ٩ مستقلة ، و١٥ تابعة لمدارس البنات الابتدائية، من هذه الرياض المباركة ، التى تضم بين جدرانها نخبة الطفولة المصرية ، فى سن مبكرة ، يجمل بنا ان نجعلها خاتمة الكتاب والكتّاب ، لما تحوى صغار الحور والولدان ، فهى جنة الدنيا ، وفردوس المدارس .

370.962:A131fA

عبد الجواد ،

فى كتاب القرية .

370.962
A131FA

370.962:A131fA:c.1
عبد الجواد ،محمد
فى كتاب القرية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01022414

370.962
A131+A